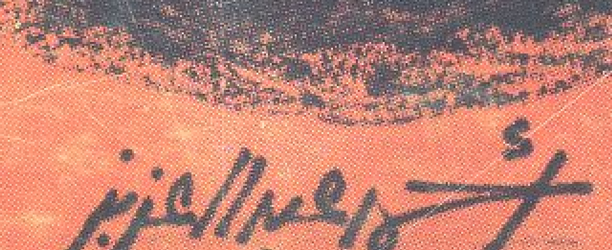
الدكتور عبد النعيم حسنين



حقيقة جمال الدين الأفغاني



إهـــــداء2005

حمد علي محمد يوسف

الإسكندرية

حقيقة
جمال الدين الأفغانى

الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

حقيقة جمال الدين الأفغاني

كتبه بالفارسية ابن أخته

ميرزا لطف الله خان الأسدبادى

ترجمه وقدّم له وعلق عليه

الدكتور عبد النعيم حسنين

أستاذ كرسى ورئيس قسم اللغات الشرقية وآدابها

بكلية الآداب جامعة عين شمس

وعميد كلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر (سابقاً)

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع

المنصورة - أمام كلية الطب

ت : ٣٢٧٤٢٣ - ص.ب : ٢٣٠


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

نهضت الدول الإسلامية نهضة قوية ملحوظة فى العصر الحديث ، وهى تسعى جاهدة إلى التحرر الكامل والرقى الشامل ، وتحاول دائبة أن تقود سفينتها إلى بر السلامة والمجد ، وتبذل كل ما فى وسعها لبلوغ العزة والسؤدد ، واسترجاع ماضيها التليد ، وحضارتها الراقية الفاضلة ، وترغب صادقة فى التجمع والتآلف للوقوف صفا واحداً فى وجه مؤامرات المستعمرين الطامعين والشيوعيين الملحدين ، والصهيونيين الكارهين الحاقدين .

وبلوغ هذا الهدف المنشود أمر ميسور إذا تمسك المسلمون بمبادئ دينهم ، وغيروا ما بأنفسهم ، لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فبالإسلام عزوا وسادوا ، وبالبعد عن تعاليمه ، والتهاون فى تطبيق مبادئه ذلوا وهانوا ، وتلك سنة الله فى خلقه ، وهى سنة لا تتغير ولا تتبدل حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد بذل المصلحون المخلصون من أبناء الدول الإسلامية جهوداً طيبة فى الدعوة إلى التحرر والرقى والتجمع والتآخى من أجل التخلص من براثن الاستعمار وإحباط مؤامرات أعداء الإسلام والمسلمين حتى يتحقق للشعوب الإسلامية ما تصبو إليه من عزة ومجد وسؤدد ، وتسير على صراط الله المستقيم الذى يقودها إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

لقد كان هؤلاء المصلحون المخلصون روادا قادوا شعوبهم فى طريق النجاة والفلاح ، مما يجعل الحديث عنهم والتعريف بهم وبجهادهم ضروريا فى كل وقت وحين ليستفيد الخلف من تجاربهم ، ويواصلوا السير فى طريقهم ، ويحققوا ما كانت تصبو إليه نفوسهم من أهداف نبيلة وغايات سامية ، ويعدوا ذلك أروع إحياء لذكراهم ، وخير تسجيل لأعمالهم ، وأعظم إشادة بمسعاهم .

والشئ الذى لا شك فيه أن جمال الدين المعروف بالأفغانى يعد من رواد الإصلاح ، فقد قضى حياته كلها داعيا إلى توحيد العالم الإسلامى ، وتحرير شعوبه من الاستعمار والاستغلال والغفلة والضياع ، ووفق إلى حد كبير فى دعوته الإصلاحية التى جعلته يزور كثيرا من الدول الإسلامية والشرقية والأوربية ، ويتصل بساستها وقادة الفكر فيها ، مما جعل اسمه يذيع ذيوعا عجيبا ، فصار يعد من المصلحين العالمين الذين حاولوا توجيه سير التاريخ ، وتغيير مجرى الحياة فى البلاد التى عاشوا فيها ، وكان هدفه الأسمى رقى الشعوب الإسلامية ، وارتفاع قدرها وعلو شأنها ، حتى يستعيد المسلمون أمجادهم القديمة ، ويقودوا ركب البشرية ، وتكون لهم حضارة زاهرة فاضلة ، تسعد بها الإنسانية فى الدنيا والآخرة .

وهذا – وحده – كاف لجعل الحديث عن جمال الدين ضروريا فى كل حين ، وجعل شخصيتة جديرة بالدراسه فى تاريخ الشرق الحديث ، وما ظهر فيه من حركات إصلاحية ، ولهذا رأيت من المفيد أن أضيف حلقة جديدة إلى سلسلة الدراسات التى تمت – حتى الآن – عن جمال الدين ودعوته الإصلاحية ، لأن شخصيته فيها جوانب مازالت فى حاجة إلى تسليط الضوء عليها ، لكشف الخفى منها ، حتى تتضح على حقيقتها ، فتتكامل المعلومات اللازمة عن هذا المصلح الكبير ، لأن الحقيقة العلمية هى غاية الدارسين .

وقد يسر الله لى فى أثناء عامين قضيتهما بكلية الآداب بجامعة طهران أن أُلِمَّ بمعلومات جديدة عن جمال الدين وأن أزور مسقط رأسه أسد آباد بالقرب من همدان ، وأزور المدرسة الجمالية التى سميت باسمه فى هذه البلدة التى مازال أفراد أسرته يعيشون فيها ، كما عثرت على نسخة من الكتاب الذى ألفه – بالفارسية –

ميرزا لطف الله خان الأسد آبادى ابن أخت جمال الدين وضمنه معلومات مفيدة عن هذا المصلح الكبير الذى عرف فى الشرق والغرب بجمال الدين الأفغانى .

ورأيت واجبا على أن أنقل الكتاب المذكور إلى اللغة العربية حتى يطلع عليه كل من يعرف العربية ، ويلم بما فيه من معلومات تلقى ضوءا كاشفا على شخصية جمال الدين ، وتساعد على تقويم أعماله تقويما صحيحا ، وتزيد قدره رفعة ، ومقامه شموخاً ، جزاء لما بذله من تضحيات فى سبيل إنجاح دعوته الإصلاحية التى دفع حياته – فى النهاية – ثمنا لها كما يفعل المجاهدون المخلصون الذين يضحون بأرواحهم من أجل إسعاد غيرهم ، ورقى عالمهم الإسلامى ، بعد توحيد صفوف المسلمين .

وقد حاول جمال الدين الاستفادة من نبوغه وعبقريته فى الدعوة إلى الإصلاح على أساس دينى اجتماعى سياسى ، فزار عددا من الدول الإسلامية والشرقية والغربية ، مما يسر له الاطلاع على أحوال المسلمين عن قرب ، ودراستها دراسة واقعية ميدانية ، فهاله ما رآه من تفكك العالم الإسلامى وتخاذله ، بينما العالم الغربى المعادى للإسلام والمسلمين تشمله نهضة علمية قوية تجعله يتقدم بخطا واسعة فى طريق التطور الشامل ، والرقى المادى الواضح ، ويتطلع إلى العالم الإسلامى بعيون شرهة لا ترضى بغير التهامه بديلا .

وكانت شعلة النهضة الغربية المادية تحمل نارا ونورا ، نارا اكتوى بها العالم الإسلامى احتلالا واستغلالا ، ونورا خلب أنظار الضالين الحيارى من أبناء العالم الإسلامى ، فخدعوا بمظاهر الحضارة المادية الغربية ، وانقادوا لها ، وقلدوها تقليدا أعمى ، فاقتبسوا ما فيها من مفاسد فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فانحرفوا عن صراط الله المستقيم ، وضلوا ضلالا مبينا ، فازدادوا ضعفا وتخاذلا .

وقد هيأ هذا الفساد – الذى ظهر فى العالم الإسلامى – الجو المناسب لدعوة جمال الدين الإصلاحية ، فصادفت هوى فى نفوس الناس الراغبين فى الإصلاح والاستقامة على طريق الله فى البلاد الإسلامية المختلفة التى زارها ، فتقبلوها بقبول حسن ، وأنبتوها نباتا حسنا ، فآتت أكلها يقظة وعملا على تحرير

بلاد المسلمين من براثن المستعمرين وشباك المفسدين ، مما جعل الشعوب الإسلامية تنظر إلى جمال الدين نظرتها إلى المحرر المنقذ الذى يسعى جاهدا إلى تبديل ضعفها قوة وتفككها وحدة وتماسكا ، ويدفعها إلى الأخذ بأسباب القوة والازدهار والتقدم والاستقرار .

ولم يكن الطريق سويا سهلا أمام جمال الدين ، فلاقى فيه ما يلاقيه المصلحون – عادة – من ألوان العنت والاضطهاد ، غير أنه وفق بجلده وثباته ومثابرته إلى إيصال أفكاره ومبادئ دعوته الإصلاحية إلى العقول المتحررة فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، فصار له تلاميذ فى كل قطر زاره ، وأصبح له معجبون فى هذه الأقطار الإسلامية ، حاولوا نشر آرائه ، وشرح أفكاره ، وتهيئة الأرض الصالحة لإنباتها ورعايتها حتى تؤتى أكلهابين الحين والحين بإذن ربها ، فينتفع بها المسلمون ، ويطبقها المصلحون ويستقيم بها المنحرفون والضالون .

فليس عجيبا أن نرى الشعوب الإسلامية تقدر جمال الدين ، وتعتز به ، وتعده من مفاخرها ، وملكا لها جميعا ، فتعنى بدراسته ، وتسعى إلى تسجيل أفكاره وآرائه ، وتحاول نشرها وإخراجها إلى حيز التنفيذ وتعمل على تمجيد ذكراه ، وترى فى هذا دليلا على يقظتها ، وبرهانا على حيويتها واستعدادها للسير فى طريق الرقى والازدهار .

وهكذا صار لزاما على الدارسين أن يكشفوا جوانب شخصية جمال الدين ، كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، حتى تتضح الحقيقة العملية التى هى الغاية المنشودة للباحثين مهما اختلفت أجناسهم ، وتباينت ألسنتهم وألوانهم .

وهذا هو الدافع الذى دفعني إلى الإقدام على ترجمة كتاب لطف الله ابن أخت جمال الدين من الفارسية إلى العربية ، حتى أساعد الدارسين على كشف حقيقة جمال الدين المعروف بالأفغانى ، وإلقاء الضوء على جانب من جوانب شخصية هذا المصلح المشهور ، يتصل بأصله ونسبه ومذهبه الدينى ، لأضيف بذلك حلقة جديدة إلى سلسلة الدراسات الكثيرة المفيدة التى تتصل به ، وتدور حوله ، حتى تكون معرفة الناس بجمال الدين تامة وكاملة وتكون فكرتهم عنه

صحيحة ، فيكون حكمهم على أعماله منصفا ودقيقا ، وحتى تتضح جهوده وتضحياته ، فتُقدرَّ أعماله تقديرا صحيحا .

وقد ثبت لى بعد زيارة « أسد آباد » مسقط رأس جمال الدين والتعرف على الأحياء من أفراد أسرته ، وبعد ترجمة الكتاب الذى ألفه ابن أخته « لطف الله » وقراءة ودراسة ما نشر من رسائل جمال الدين أنه كان إيرانيا من أهل أسد آباذ بالقرب من همدان ، وأنه كان شيعيا جعفرى المذهب[1] ، وهذه هى حقيقة ذلك المصلح الكبير ، الذى حاول إنقاذ العالم الإسلامى فى عصره من التفكك والضعف والاستعمار والاستغلال .

وما ثبت لى يغاير ما اشتهر من أمر جمال الدين ، فهو معروف بانتسابه إلى بلاد الأفغان ، وبأنه سنى المذهب ، وقد كان هو نفسه يحرص على تلقيب نفسه بالأفغانى ، كما كان يفضل الظهور فى صورة عالم من علماء أهل السنة فى البلاد الإسلامية المختلفة التى زارها – غير وطنه الأصلى إيران – وكان حرصه هذا لازما لإنجاح دعوته الإصلاحية ، ونشر أفكاره فى الدول الإسلامية الخاضعة لسلطان الدولة العثمانية ، مقر الخلافة الإسلامية .

وقد راج انتساب جمال الدين إلى بلاد الأفغان رواجا طاغيا غطى الحقيقة التى أثبتتها الدراسة العلمية المنصفة والأدلة المادية الملموسة الشاخصة .

وأحب أن أقول – هنا – إننى حين أكشف هذا الجانب من جوانب شخصية جمال الدين ، وأثبت ما أقرره بالأدلة الواضحة – التى لا تقبل شكا ولا جدلا – أننى – شخصيا – فوجئت بظهور هذه الحقيقة ، ولكنى رأيت أن

---

(١) المذهب الجعفرى : هو المذهب الرسمى فى إيران منذ بداية العصر الصفوى فقد أعلن الشاه إسماعيل الصفوى – مؤسس الدولة الصفوية الشيعية – المذهب الجعفرى مذهبا رسميا لإيران فى عام ٩٠٧هـ أى منذ خمسة قرون تقريبا ، ولا يزال هذا المذهب هو المذهب الرسمى فى إيران إلى يومنا هذا ، وهو منسوب إلى جعفر الصادق الإمام السادس عند الشيعة الإمامية .

والشيعة الإمامية هم الشيعة الأثنا عشرية الذين يعتقدون فى اثنى عشر إماما أولهم على بن أبى طالب وآخرهم محمد بن الحسن العسكرى وهو الإمام الغائب صاحب الزمان الذى ينتظره الشيعة ظهوره فى منتصف شعبان من كل عام (المترجم) .

من الواجب ذكرها ، لأن إثبات الحقيقة هو غاية ما يهدف إليه الدارسون – كما ذكرت – فليس لى من هدف من وراء ذكرها وإثباتها إلا خدمة العلم ، وتصحيح خطأ شائع متعارف بين الناس ، بلغ من الرواج درجة جعلته يطغى على الحقيقة .

ولا يؤثر إثبات حقيقة جمال الدين فى مكانته شيئا ، ولا يحط من قدره ذرة بل لعل ذكر حقيقته يرفع من مكانته ، ويزيد من قدره ، ويبين مدى النجاح الذى حققه فى دعوته الإصلاحية لتحقيق الوحدة الإسلامية برغم كونه شيعيا ، تعترض طريقه العوائق والعقبات وتحاك ضده المؤامرات .

والشئ الذى لاشك فيه أن شخصية جمال الدين ملك للأمم الإسلامية جميعا ، فسواء كان أفغانيا سنيا أم إيرانيا شيعيا ، فإنه مصلح إسلامى شرقى ، وبطل من أبطال تحرير المسلمين والشرق ، يزهو به كل مسلم ويعتز به كل شرقى أيا كان موطنه .

ولا يضير هذا قطرا مسلما مجاهدا عزيزا كأفغانستان ، لأنها كانت هى وإيران دولة واحدة فى أكثر عصور التاريخ الإسلامى ، وهما تشتركان فى الدين وفى اللغة وفى كثير من ألوان التراث الإسلامى الذى يفتخر به المسلمون فى كل زمان ومكان على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم ، وقد عاش فيهما كثير من علماء المسلمين فى مختلف العلوم والفنون ، ممن تفخر بهم الحضارة الإسلامية بخاصة ، وحضارة البشرية بعامة .

فلن يضير أى قطر إسلامى إثبات أصل جمال الدين ومذهبه مادامت الأقطار الإسلامية جميعها تعده ملكا لها ، وجزءا من مفاخرها ، بل إننى أعتقد أن الدارسين – أينما وجدوا – يرحبون بإثبات هذه الحقيقة وكشفها وتوضيحها وتحريها ، حتى تكون نتائج دراساتهم صحيحة مفيدة ، ذات قيمة علمية ملموسة ، والله الموفق والهادى إلى طريق الصواب .

وإن الأدلة التى تثبت أن جمال الدين إيرانى شيعى جعفرى المذهب كثيرة وقاطعة ، وسأكتفى بذكر أهمها فيما يلى :

أولا : وجود عائلة جمال الدين فى إيران وانعدام أى أثر لها فى أفغانستان .

من البديهيات أن عائلة الإنسان – أو جزءا منها على الأقل – توجد فى موطنه الأصلى ولو كان جمال الدين أفغانيا – كما هو معروف ومشهور – لبقيت عائلته – أو نفر منها فى أفغانستان ، ولوجد من يدعى القربى أو النسب والصلة بهذه العائلة الكريمة ، التى خرج منها مصلح كبير مشهور مثل جمال الدين ، لأن ثبوت الصلة بعائلة كهذه من دواعى الشرف والتفاخر .

فهل توجد فى أفغانستان بقية من عائلة جمال الدين ؟! .. الواقع أنه لايوجد أثر لهذه العائلة فى بلاد الأفغان ، وهذه حقيقة لاينكرها الأفغان أنفسهم ، بل إن منهم من يعترف بأن جمال الدين إيرانى شيعى المذهب – فى الحقيقة – ، فقد اعترف الأمير عنايت الله خان عم أمان الله خان ملك الأفغان الأسبق بأن جمال الدين إيرانى الأصل شيعى المذهب بعد أن اقتنع بصحة هذا الأمر ، وقد حرص الأمير المذكور فى أثناء سفره من طهران إلى بغداد على النزول فى قرية أسد آباد بالقرب من همدان ، حيث ولد جمال الدين ، ومكث فى هذه القرية بعض الوقت ، اجتمع فى أثنائه ببعض أفراد أسرة جمال الدين الذين يعيشون فيها ، وتحدث معهم ، ثم زار قبور أجداد جمال الدين ، والدار التى ولد فيها ، ولم يغادر أسد آباد إلا بعد تأكده من أن جمال الدين إيرانى الأصل شيعى المذهب ، وقد رويت أنباء هذه الزيارة عن الأمير المذكور وأمرها معروف ، لا ينكره الأفغان أنفسهم ، مما يدل دلالة قاطعة على أن جمال الدين كان إيرانى الأصل ، شيعى المذهب ، وأن اشتهاره بالأفغانى كان من وسائل خدمة دعوته الإصلاحية وتيسير انتشار أفكاره فى الدول الإسلامية السنية .

إن وجود عائلة جمال الدين فى إيران دليل قوى على أنه إيرانى ومازال أفراد هذه العائلة يعيشون فى حى « سيدان »[1] بقرية أسد آباد بالقرب من همدان ،

(١) « سيدان » الجمع الفارسى لكلمة سيد أى « السادة » وهذه الكلمة من الألقاب الخاصة بالأشراف الذين ينتسبون إلى أسرة رسول الله – ﷺ – وقد كان نسب جمال الدين يتصل بالحسين بن على – رضى الله عنهما – ، ولذلك كان جمال الدين يحرص على أن يوقع على مقالاته باسم جمال الدين الحسينى (المترجم) .

وهى معروفة باسم الأسرة الجمالية .

وقد تأكدت - أنا شخصيا - من هذا الأمر حين زرت هذه القرية فى خريف عام ١٩٥٠ ؛ وكان من أفراد عائلة جمال الدين المشهورين - حينذاك - السيد هادى روح القدس ، وميرزا[٢] لطف الله ، وميرزا شريف خان ، وعطاء الله خان ، وصفات الله ، ونصر الله ، وفتح الله ، وسعد الله ، وقد اشتهروا جميعا بلقب الجمالى نسبة إلى جمال الدين .

كما يجد الزائر للقرية مدرسة اسمها « المدرسة الجمالية » أنشأتها وزارة التربية والتعليم الإيرانية فى مسقط رأس جمال الدين ، وسمتها باسمه تمجيداً له ، وتخليداً لذكراه .

ومما يتفق مع العقل والمنطق بعد هذا الدليل المادى الملموس أن يكون جمال الدين إيرانيا شيعيا ، وأن يتساءل الباحثون : لماذا انتسب جمال الدين إلى بلاد الأفغان ، وحرص هو نفسه على هذا الانتساب ؟! .. .

والإجابة على هذا السؤال ليست صعبة ، فقد أدرك جمال الدين بفطنته أن انتسابه إلى بلاد الأفغان السنية المذهب ييسر مهمته فى دول العالم الإسلامى السنية المذهب وبخاصة تركيا ومصر لأن هذا الانتساب يضفى عليه صفة العالم الدينى السنى ويمكنه من دخول الدول السنية المختلفة معززا مكرما ، ويفتح لدعوته آذان الناس وقلوبهم فى هذه الدول ، فى عصر اشتد فيه التعصب المذهبى ، وكان يكفى أن يعرف المسلمون فى العالم السنى أن جمال الدين إيرانى شيعى فلا يلتفت أحد إليه ، ولا يصغى لدعوته الإصلاحية ، مهما أوتى من علم ومنطق وبيان واضح .

لهذا فضل جمال الدين الانتساب إلى بلاد الأفغان لأمر يتعلق بدعوته الإصلاحية فقد خشى أن يؤدى كونه إيرانيا شيعيا إلى وضع العراقيل فى طريقه ، ويحول دون نشر دعوته ، وبلوغها الهدف المنشود .

---

(٢) « ميرزا » لقب فارسى مركب مكون من كلمتين « مير » بمعنى الأمير و « زا » من « زاده » بمعنى ابن . وكان هذا اللقب يطلق - قديما - على الأمراء والنبلاء ، ثم أصبح لقبا علميا ، يطلق على كبار الأساتذة والعلماء والأدباء . (المترجم) .

وقد يسر الله له الانتساب إلى الأفغان ، فقد رحل إلى بلاد الأفغان في بداية تجواله في العالم الإسلامي ، وأقام فيها بضع سنوات ألف في أثنائها كتابا سماه ، « تاريخ الأفغان » ولقب – بسبب إقامته في هذه البلاد – بالأفغاني ، فأصبح مكروها من حكام إيران – حينذاك – وعلى رأسهم ناصر الدين شاه ملكها في ذلك الوقت ، أي أن الظروف التي عاش فيها جمال الدين فرضت عليه أن يختار لقب الأفغاني ، ويحرص على الانتساب إلى بلاد الأفغان ، ويفضله على الانتساب إلى بلاده إيران حتى يتيسر له السير في الطريق الذي يريده ، ويحقق الأهداف التي يرمي إليها ، ويرشد الشعوب الإسلامية المختلفة إلى كيفية تحقيق الوحدة والتخلص من الاستعمار والاستغلال ، واستعادة المجد القديم ، على أساس من كتاب الله الكريم ، وهدى نبيه العظيم .

ثانيا : اسم والد جمال الدين دليل على أنه إيراني شيعي :

من المعروف لدى الدارسين أن هناك أسماء لا يسميها إلا الشيعة منها « صفدر » وهو اسم والد جمال الدين ، وهو اسم فارسي مركب من كلمتين هما « صف » العربية و « در » الفارسية التي معناها « ممزق » أو « مفرق » ومعنى اسم « صفدر » « ممزق الصفوف » أي الشجاع البطل الذي يمزق صفوف الأعداء في ميدان القتال .

وقد أسند الإيرانيون الشيعة هذه الصفة إلى علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – لما كان يبديه في الحروب من بسالة عجيبة ضد المشركين واتخذ الشيعة هذه الصفة اسما لأبنائهم تيمنا بإمامهم علي بن أبي طالب ، فتسمية والد جمال الدين بصفدر دليل على أنه إيراني شيعي ، لأنه لايوجد لاسم « صفدر » مسمى في أفغانستان ، كما لايوجد له مسمى في أي بلد سني آخر ، فهو لايوجد إلا بين الشيعة ، كما أن اسم « عمر » مثلا لا يوجد إلا في البلاد السنية .

ثالثا : نشأة جمال الدين وأسلوب تحصيله يثبتان أنه إيرانى شيعى :

للشيعة طريقة معينة فى تنشئة أبنائهم ، وأسلوب خاص فى تعليمهم خاصة إذا كانوا يعدونهم للدعوة وليصيروا من علماء المذهب الشيعى ، فلابد من إرسالهم إلى النجف وكربلاء بالعراق حيث دفن على بن أبى طالب وابنه الحسين - رضى الله عنهما - لطلب العلم هناك والتتلمذ على كبار علماء الشيعة الذين يتجمعون فى هذه المنطقة التى تعرف عندهم بالعتبات المقدسة .

وللشيعة أسلوب معين فى التحصيل هو الاهتمام بدراسة العلوم التى تساعد على الجدل كالفلسفة والمنطق وعلم الكلام إلى جانب دراسة العلوم الدينية البحتة كالحديث والتفسير والفقه ، ودراسة علوم أخرى كالتاريخ وعلوم اللغة العربية والرياضيات .

والمتتبع لنشأة جمال الدين وأسلوب تحصيله يدرك أنه إيرانى شيعى لا أفغانى سنى ، فقد ولد فى عام ١٨٣٩ م (١٢٥٤ هـ) وظل فى المنزل حتى سن العاشرة يعكف على حفظ القرآن الكريم ويعلمه والده مبادئ اللغة العربية ، ثم حمله والده إلى قزوين فى عام ١٨٤٩ م (١٢٦٤ هـ) حيث التحق بمدرسة قزوين ، وكان والده يعمل مدرسا بها ، فمكث فيها عامين ثم رحل فى عام ١٨٥١ م (١٢٦٦ هـ) إلى طهران ، ليدرس المذهب الشيعى بواسطة أكبر علماء طهران فى ذلك الوقت وكان يسمى على آقاسيد صَادق[1] ، ثم رحل جمال الدين بعد ذلك إلى العراق ليدرس فى النجف ، وهى المدينة التى تضم رفات إمام الشيعة الأول على ابن أبى طالب - رضى الله عنه - وتعد موطن العلم والعلماء فى نظر الشيعة ، كما تعد مركزالدراسات العليا فى المذهب الشيعى ، حيث توجد فيها كلية لدراسة المذهب الشيعى والتخصص فيه ، يحج إليها كل من يريد التخصص فى علوم الدين من وجهة النظر الشيعية ، وكل من يرغب فى بلوغ مرتبة الاجتهاد من

---

(١) « اقا » كلمة - فارسية - معناها « السيد » وتنطق « القاف غينا » . (المترجم) .

علماء الشيعة حيث يتتلمذ على يد أحد المجتهدين من علماء الشيعة من الذين يلقب الواحد منهم بآية الله ويلقب رئيسهم بآية الله العظمى .

وقد أقام جمال الدين فى النجف أربع سنوات ، تتلمذ فى أثنائها على الشيخ مرتضى الأنصارى أحد كبار علماء الشيعة المعروفين فى ذلك الوقت ، وحاول الإلمام بقسط وافر من العلوم الفلسفية ، والتوسع فى دراسة المنطق وعلم الكلام إلى جانب دراسة الفقه وعلم الأصول .

وهكذا سلك جمال الدين فى دراسته مسلك الشيعة فى الدراسة فدرس – إلى جانب العلوم الدينية – علوما تهبه قوة فى الجدل والاستدلال – كما تهبه قدرة على البحث والنقاش والتلاعب بالألفاظ ومدلولاتها لتخدم أغراضه وهو يجادل خصمه ، أو يحاول إقناع من يريد أن يقنعه بفكرة معينة .

وهذا الأسلوب فى تحصيل العلم عند الشيعة يختلف عن أسلوب الدراسات الدينية عند أهل السنة لأن طلبة العلم عندهم يقتصرون فى دراستهم على الفقه وأصول الفقه مع توسع ملحوظ فى الحديث والتفسير واللغة العربية والأدب .

وقد كانت دراسة جمال الدين على الطريقة الشيعية مما جعل قوته فى الحكمة والمنطق والجدل من الظواهر التى لفتت إليه الأنظار فى الأوساط العلمية فى مصر وتركيا ، فوجد طلاب العلم فيه لونا جديدا لم يألفوه من قبل ، فالتفوا حوله ، وتعلقوا به ، ومالت أفئدتهم إليه ، وتفاخروا بالتتلمذ عليه ، وتساوى فى هذا الميل طلاب العلم وعلماء الأزهر وخريجو المعاهد المصرية العليا ، ومن أشهر من تتلمذوا عليه فى مصر محمد عبده وسعد زغلول .

وإن نشأة جمال الدين والطريقة التى اتبعها فى دراسته وألوان ثقافته لتدل جميعها على أنه كان إيرانيا شيعيا ولم يكن أفغانيا سنيا .

رابعا : اشتراك جمال الدين فى توجيه الأحداث فى إيران دليل على إيرانيته :

إن المتتبع لأطوار حياة جمال الدين يستطيع أن يدرك بسهولة أنه إيرانى شيعى ، فقد اهتم بإيران أكثر من اهتمامه بأى قطر إسلامى آخر ، وكان يحاول

إصلاح أحوالها ، وجعلها المصدر الذى يغذى حركته الإصلاحية فى العالم الإسلامى ، أملا فى توحيد صفوف المسلمين ودفعهم إلى التقدم والرقى ، واستعادة أمجادهم ، وسالف عزتهم .

وحب الوطن غريزة فطرية فى الإنسان لا يستطيع أى إنسان مقاومة هذا الحب مهما جار الوطن عليه ، لأنه شئ يستقر فى القلب ، ويظهر فى السلوك والتصرفات ، مهما حاول الإنسان إخفاءه ، وهذا أمر لوحظ بسهولة فى تصرفات جمال الدين ، فقد كان يحن دائما إلى إيران ويسعى جاهداً إلى دخولها كلما أقصى عنها ، ويراقب سير الأحداث فيها ، ويساهم فى توجيه هذه الأحداث .

وكانت تصرفات جمال الدين - فى أثناء إقامته فى تركيا - تثبت أنه إيرانى شيعى ، فقد كان أكثر من يضمهم مجلسه فى إسلامبول من الإيرانيين ، مثل : ميرزا حسن خان خبير الملك ، والشيخ أحمد روحى ، وميرزا اقا خان الكرمانى ، وزين العابدين المراغى ، والسيد توفيق الهمدانى ، وحسين دانش الأصفهانى .

ومما يثبت إيرانيته أنه اشترك فى تدبير مؤامرة للتخلص من ناصر الدين شاه ملك إيران - المعاصر لجمال الدين - لاعتقاده أن هذا الملك عقبة تحول بين جمال الدين وبين نجاح دعوته الإصلاحية وبلوغها أهدافها المنشودة ، وكان قتل ناصر الدين سببا فى افتضاح أمر جمال الدين وكشف حقيقة أنه إيرانى شيعى ، مما جعل السلطان العثمانى يتخلص منه فى النهاية ، لأن خصوم جمال الدين حين فكروا فى القضاء عليه لم يجدوا شيئا يتهمونه به إلا أنه إيرانى شيعى يكذب ويدعى أنه أفغانى سنى حتى يجد له طريقا فى تركيا والأقطار السنية الأخرى ؛ وهذا ما فعله أعداء جمال الدين فى إسلامبول ، وعلى رأسهم شيخ الإسلام أبوالهدى ، فقدموا وثيقة تثبت أن جمال الدين إيرانى شيعى ، واستطاعوا بواسطتها تغيير رأى السلطان العثمانى خليفة المسلمين السنيين فى جمال الدين ، فقضى عليه وأسدل الستار على قصته ، وهذا دليل على ثبوت أصل جمال الدين ، وأنه إيرانى شيعى .

والواقع أن جمال الدين كان إيرانيا فى طبعه وتفكيره وتصرفاته ، فبالرغم من كثرة أسفاره فإنه كان يحاول دائما الرجوع إلى وطنه إيران حتى لو تحمل الأذى والهوان من أجل البقاء فى إيران ، وهذا أمر لايستغرب من إنسان تجاه

وطنه ، لأن الإنسان بفطرته يسترخص كل بذل من أجل وطنه ، ولا يخرج منه إلا مكرها ، وهذا ما حدث لجمال الدين ، فقد كان يسعى للعودة إلى إيران كلما أخرج منها غير أنه أدرك أن الظروف فى إيران لا تمكنه من القيام بأى نشاط ولا تيسر له نشر دعوته الإصلاحية فيها ، وتحقيق أهدافه التى ينشدها ، وأن بلدته أسد آباد أضيق من أن يقيم فيها ، فدفعه هذا كله إلى حب الأسفار ، وزيارة البلاد الإسلامية لنشر دعوته الإصلاحية فيها ، أملا فى أن تتحقق أهدافه بهذه الوسيلة ، وعن هذا الطريق .

وقد روى ابن أخته لطف الله خان هذا عنه فقال[1] .

« وفد علينا بأسد آباد السيد الخال الأجل بعد عودته من الحج ، وكان ينوى الذهاب إلى خراسان لزيارة الإمام على الرضا[2] ، بمشهد ، فمكث عندنا ثلاثة أيام لتجديد العهد مع والده وأفراد أسرته ، فتعلقت به قلوب أبناء البلدة وطلب منه والده – الذى كان على قيد حتى ذلك الحين[3] . أن يغير من عزمه ، ويبقى فى أسد آباد ، ويعيش معهم فيها ، فاعتذر جمال الدين لوالده قائلا له : « إننى مثل صقر محلق يرى فضاء هذا العالم الفسيح يضيق أمام طيرانه ، وإنى أعجب منكم لأنكم تريدون أن تقيدونى فى هذا القفص الضيق الصغير »[4] .

وهذا يدل على أن جمال الدين كان منذ شبابه الباكر يحب السفر والتجوال فى البلاد الإسلامية المختلفة ، فلما تيسرت له أسباب السفر فيما بعد ، وجد أن انتسابه إلى إيران وظهوره فى مظهر شيعى ، يضعان العراقيل فى طريقه ، ويؤثران فى انتشار دعوته إلى إنشاء جامعة إسلامية ، فآثر الاستفادة من لقب الأفغانى

---

(١) ارجع إلى كتاب « المقالات الجمالية » ص ١١ وما بعدها ، وقد جمع هذه المقالات لطف الله الجمالى .

(٢) الإمام على الرضا هو الإمام الثامن عند الشيعة الأثنى عشرية . (المترجم) .

(٣) كان ذلك فى عام ١٨٥٥ م (١٢٧٠ هـ) .

(٤) نص عبارته بالفارسية هو .

« من مانند شاهبازى هستم كه فضاى عالم ، باين وسعت براى طيران أو تنك باشد ، تعجب درام ازشماكه ميخوا هيد مرادراين قفس تنك وكوجك باى بند كنيد » المقالات الجمالية ، ص ١٢ .

– الذى ظفر به فى أثناء إقامته فى أفغانستان – ليتمكن من دخول البلاد الإسلامية السنية بسهولة ، ويستطيع نشر دعوته الإصلاحية ، والعمل على توحيد صفوف المسلمين ، وتوجيههم إلى طريق المجد والرقى .

وكان لقب الأفغانى خير لقب يستطيع جمال الدين الاحتماء به ، لأن أفغانستان بلاد سنية ، وكانت لغتها الرسمية – فى ذلك الوقت – هى اللغة الفارسية – كلغته هو – كما كان المذهب الرسمى فى أفغانستان هو المذهب الحنفى الذى هو فى الوقت نفسه المذهب الرسمى فى الدولة العثمانية ، دولة الخلافة الإسلامية السنية ، وكان التعصب المذهبى على أشده فى أثناء حكم السلطان عبد الحميد فى تركيا والشاه ناصر الدين فى إيران ، أى فى أثناء المدة التى زاول فيها جمال الدين نشاطه ، وكثر تحركه شرقا وغربا لنشر دعوته .

وهكذا استطاع جمال الدين أن يختفى بمهارة وراء لقب الأفغانى فيجد ترحيبا به فى تركيا ومصر ، ويتزعم علماء الأزهر فى مصر وهو إيرانى الأصل شيعى المذهب ، بل لقد حقق انتساب جمال الدين إلى بلاد الأفغان له هدفا آخر هو إبعاده عن طائلة ممثلى إيران وقناصلها فى الخارج ، وجعله تحت رعاية ممثلى إنجلترا التى كان لها نفوذ كبير فى أفغانستان ، وكانت ترعى مصالحها وأتباعها فى الخارج ، مما وفر شيئا من الحماية لجمال الدين ، ويسر له مهمة السفر إلى الأقطار الإسلامية السنية ، كما يسر له الإقامة فيها بعد طرده من إيران .

وقد ازداد تشبث جمال الدين بانتسابه إلى بلاد الأفغان حين ساءت علاقته بالمسئولين فى إيران ، حتى يبعد الشر والأذى عن أفراد أسرته فى أسد آباد ، فقد جرت العادة – فى ذلك الوقت – أن تؤخذ الأسرة بجرم أى فرد منها ، ولو أن هذا لم ينقذ أسرة جمال الدين من الأذى والاضطهاد بعد اتهامه بالاشتراك فى تدبير المؤامرة التى أدت إلى قتل الشاه ناصر الدين ، لأن جمال الدين كان – كما ذكرنا – يهتم بفطرته بالأحداث التى تجرى فى وطنه الأصلى إيران ، ويشارك فيها بفكره وتدبيره ، مما جعله يدفع حياته فى النهاية ثمنا لهذه المشاركة ، ومما يدل على أنه إيرانى الأصل شيعى المذهب برغم محاولته الاختفاء وراء انتسابه إلى بلاد الأفغان .

خامسا : تحدث جمال الدين الفارسية باللهجة الإيرانية دليل على إيرانيته :

من المعروف فى البلاد التى تتكلم لغة واحدة ، أن كل إقليم له لهجة خاصة به ، فاللهجة الأفغانية تختلف عن اللهجة الإيرانية ، وقد شهد كل من اتصل بجمال الدين واستمع إلى أحاديثه بأنه كان يتحدث الفارسية بلهجة إيرانية خالصة ، لا تشبه اللهجة الأفغانية ، مما يدل على أن جمال الدين احتفظ باللهجة الإيرانية حتى فى أثناء إقامته بضع سنوات فى أفغانستان مما يدل على تعصبه لوطنه الأصلى وللهجة التى يتحدث بها أهل وطنه .

وهناك شواهد أخرى تثبت هذا ، منها ما ورد فى كتاب « مردان خود ساخته » أى « الرجال العصاميون » فقد ذكر تقى زاده فى مقالته عن جمال الدين ما ترجمته .

« وقد عاش جمال الدين مدة من أوائل عمره فى أفغانستان غير أن الروايات الدقيقة ، والأدلة الكافية تثبت – دون تعصب – أنه كان إيرانيا ، وقد قابلت أشخاصا عديدين من ملازمى جمال الدين الإيرانيين ، فذكروا لى أنه كان يقول لهم بصراحة إنه إيرانى ، وكان يتحدث الفارسية بلهجة إيرانية أصيلة ... ومن الأشخاص الذين حدثونى عنه الكاتب القفقازى الشهير محمد آقا شاه تختنسكى وقد قال لى إن السيد كان يتحدث التركية باللهجة الهمدانية ، وبديهى أن انتشار هذه اللهجة فى نواحى كابل من الأمور المستبعدة »[١] .

كما أن أسلوب كتابته بالفارسية كان أسلوبا إيرانيا خالصا ، ويتضح هذا من « الرسالة الطبيعية » التى كتبها فى الرد على الدهريين[٢] ، ومن غيرها من المقالات الكثيرة التى كتبها بالفارسية ؛ وقد نشر جزء منها فى كتاب « مقالات جماليه »[٣]

---

(١) يمكن الرجوع إلى المقالة التى كتبها تقى زاده عن جمال الدين فى كتاب « مروان خود ساخته » طبع طهران ، ص ٤٤ .

(٢) اسم هذه الرسالة بالفارسية « رسالة نيجريه » (المترجم) .

(٣) طبع كتاب « مقالات جمالية » فى طهران فى سنة ١٣١٢ هـ . شمسية ، أى ١٣٥٢ هـ . قمرية أو ١٩٣٣ م .

أى « المقالات الجمالية » فمن يقرأ كتابات جمال الدين ، يستطيع أن يدرك فى سهولة أن أسلوب كتابته الفارسية أسلوب إيرانى خالص ، مما يدل على أنه كان إيرانيا شيعيا ولم يكن أفغانيا سنيا .

سادسا : اعتراف السلطان عبدالحميد بأن جمال الدين إيرانى دليل على إيرانيته :

سبق أن ذكرنا أن أحد كبار المسئولين الأفغانيين اعترف بأن جمال الدين إيرانى شيعى بعد أن زار البلدة التى ولد فيها والتقى بأفراد أسرته ، وكذلك اعترف السلطان العثمانى عبدالحميد بهذه الحقيقة بعد أن تأكد بنفسه من أن جمال الدين إيرانى شيعى ، بعد أن وصلته عريضة من أهل أسد آباد بهمدان تثبت أن جمال الدين إيرانى من بلدتهم وأنه ينتمى إلى إحدى العائلات المعروفة التى تسكن هذه البلدة .

وقد قدمت هذه العريضة للسلطان العثمانى بواسطة السفارة الإيرانية فى إسلامبول ، وقام السلطان باستدعاء جمال الدين للاستفسار عن مدى صحة ما جاء فى العريضة ، فلم يستطع أن ينكر أنه إيرانى الأصل شيعى المذهب ، فتغير رأى السلطان فيه ، وأعلن أنه إيرانى شيعى وليس أفغانيا سنيا كما يتظاهر بذلك ، وقرر السلطان التخلص منه بعد اكتشاف حقيقته .

واعتراف جمال الدين نفسه أمام السلطان بأنه إيرانى دليل قاطع على حقيقته ، لأنه لو كان أفغانيا لسارع بتكذيب ما جاء فى العريضة ، ولأرسل إلى أهله فى أفغانستان ليبعثوا إليه بشهادة رسمية تثبت أنه أفغانى ليدفع بها الأذى عن نفسه فى وقت كان جمال الدين يدرك فيه أن اكتشاف حقيقته قد يؤدى به إلى التهلكة .

ومما لا شك فيه أن رجلا كجمال الدين لم يكن من السذاجة بحيث لا يتوقع انتقاما من ملك إيران الشاه « مظفر الدين » بن الشاه « ناصر الدين » الذى اتهم جمال الدين بالاشتراك فى تدبير المؤامرة الذى انتهت باغتيال « ناصر الدين » ، وكان المغمز الوحيد الذى يمكن أن يغمز منه جمال الدين هو أنه إيرانى

شيعى يقيم فى كنف الدولة العثمانية السنية مدعيا أنه أفغانى سنى ، فى وقت كان التعصب المذهبى فيه مازال على أشده .

وكان كشف هذه الحقيقة كافيا لتغير رأى السلطان العثمانى فى جمال الدين ، وتغيير معاملة الدولة العثمانية له ، وهذا هو ماحدث فعلا بعد وصول العريضة الكاشفة للحقيقة – كما ذكرنا – وانتهى الأمر بجمال الدين أن دفع حياته ثمنا لاكتشاف حقيقته ، وأصاب أفراد عائلته فى أسد آباد ما أصابهم من ألوان الاضطهاد والتنكيل .

وهذا دليل واضح على أن جمال الدين كان إيرانيا شيعيا ولم يكن أفغانيا سنيا ، كما راج بين الناس .

سابعا : كثرة إشادة جمال الدين بالإيرانيين تثبت أنه منهم :

ومما يثبت أن جمال الدين إيرانى كثرة تمجيده للإيرانيين وإشادته بذكائهم بصورة لم تشاهد فى وصفه للشعوب الأخرى التى زارها ، وكان له مريدون فيها ، فقد زار جمال الدين بلادا إسلامية وغير إسلامية ، شرقية وغربية ، وأقام مددا متفاوتة فى هذه البلاد ، وكان له فى كل بلد زاره مريدون وأصدقاء وتلاميذ ، كما شاهد مظاهر الحضارة الغربية المتقدمة فى جوانبها المادية ، ولكنه لم يسرف إلا فى ذكر إيران والإيرانيين ، ولم يمجد إلا ذكاء بنى وطنه ، برغم أنه زار – إلى جانب إيران – أفغانستان والعراق والحجاز والهند ومصر وتركيا وروسيا القيصرية والنمسا وفرنسا وإنجلترا وتعرف على ألوان نشاط شعوب هذه البلاد .

وكان جمال الدين يصرح – دائما – بأنه لولا فساد الحالة السياسية فى إيران ما غادرها طيلة حياتـه ؛ وقد ظل يمجد الإيرانيين برغم ما لاقاه من الحكومة الإيرانية ومن الملك الإيرانى من ألوان العنت والاضطهاد ، وكان يبدى حرصا عجيبا على إصلاح الحالة فى إيران ، فلما يئس من تحقيق هدفه فى ظل حكم الشاه « ناصر الدين » شجع على قتله اعتقادا منه بأنه أصل الداء وسر البلاء .

ولعل من المفيد هنا أن نفصل الحديث – فى هذا الأمر – بعض الشئ ، لأن ما ذكر فى الكتاب موجز ، فمن الخير تفصيل الحديث حتى تتكشف جوانب الموضوع وتتضح الحقيقة .

فقد تصادف ظهور جمال الدين فى وقت كانت إيران فيه فى حالة اقتصادية بالغة السوء ، وكان النفوذ الأجنبى متغلغلا فيها ، فكانت مسرحا تتصارع فوقه الدول الكبرى – انجلترا وفرنسا وروسيا القيصرية – لخدمة مصالحها فى منطقة الشرق الأوسط ، بينما تتجاهل مصلحة الشعب الإيرانى ، لضعف حكامه وانقيادهم للأجانب .

وظهر نشاط جمال الدين – فى أقوى صوره – فى عصر الشاه ناصر الدين القاجارى الذى استمر حكمه ما يقرب من نصف قرن من الزمان ، ولم يكن ناصر الدين يهتم بإصلاح الأوضاع فى بلاده قدر اهتمامه برحلاته وملذاته ومصالحه الخاصة .

وكان كبار رجال دولته ينافقونه ليظفروا بمزيد من الثراء والجاه على حساب الشعب الإيرانى المطحون ، فلم يكونوا يطالبون بإصلاح أو تغيير للأوضاع الفاسدة ، فلما ظهر مصلح كجمال الدين أخذوا يشككون الملك فيه ، وفى دعوته الإصلاحية ، وفى حقيقة نواياه ، ويحذرونه من ثورة قد يدبرها ضده ، فلا يلبث الملك أن يغضب عليه ، ويأمر بإخراجه من البلاد .

وهذا ما حدث لجمال الدين أكثر من مرة ، فكان كلما زار وطنه إيران يبين فساد الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيها ، ويطالب بإصلاح الأحوال بأسرع وقت ممكن ، فلا يلبث أن يجد صدودا من الشاه ناصر الدين ، لأن المحيطين به من المنافقين يخوفونه من جمال الدين ، ويحذرونه من خطورة دعوته ، فينفر منه ، ثم يضيق به ذرعا ، ويأمر بإخراجه من البلاد .

وقد أشار إلى هذا حسين عدالت فى رسالته التى كتبها عن جمال الدين ، فقال فيها .

« وحدث يوما أن رافق الصدر الأعظم « ميرزا أصغر خان أتابك » السيد جمال الدين فى أثناء ذهابه لزيارة ضريح « شاه عبد العظيم » بالرى[1] ، فأخذ السيد يشرح له وضع البلاد وما وصلت إليه من تدهور وانحطاط بحيث صارت محلا لأطماع الإنجليز والروس ، فأجهش الصدر الأعظم بالبكاء وأجابه بقوله : إن كل ما قلته حق لا جدال فيه ، ولا مجال لإنكاره ، ولكن هذا الرجل – يقصد الشاه ناصر الدين – لا يحب أن تتغير الأحوال ، لأن كل همه أن يقضى أوقاته فى لهو وفراغ بال ، فلن يحاول عمل شئ قد ينغص عليه عيشه ، ويعجل بنهايته ، ونحن – مع علمنا بأن الشعب يكرهنا ويرمينا بالخيانة – لا نستطيع القيام بأى عمل لإصلاح حال البلاد وتحسين أمور العباد » .

وقد وجهت الحكومة الإيرانية – بأمر من الشاه ناصر الدين – الدعوة إلى جمال الدين ثلاث مرات لزيارة إيران ، وكان جمال الدين يلبى الدعوة مسرورا ، ويسرع بالمجئ إلى إيران ، ثم يشير على المسئولين فيها بالقيام بإصلاحات لتحسين الأحوال السيئة فى البلاد ، غير أنه كان يقابل – فى كل مرة – بمعارضة شديدة من هؤلاء المسئولين المنافقين المحيطين بالشاه ، ثم لا يلبث هؤلاء أن يشككوا الشاه فى نوايا لجمال الدين ويحذروه من تركه يقيم فى إيران ، خشية أن يدبر مؤامرات ضده ، ويوهموه بأن هدف جمال الدين الأسمى هو إقصاؤه عن الحكم ، فيخاف الشاه ، ويصدر أوامره بإخراج جمال الدين من البلاد .

وكان جمال الدين لا ييأس أبداً ، ولا يدع للوهن سبيلا إلى عزيمته الصلبة ، فكان يحاول فى كل مرة أن يدعو إلى الإصلاح ، وكان يفرق بين الملك وبطانته ، وبين الشعب الإيرانى نفسه ، وكان يردد – دائما – أن فى الشعب الإيرانى حيوية كافية لابد أن تظهر يوما ما ، وأن فى أفراده ذكاء خارقا يؤهلهم للتطور والرقى وبلوغ أعلى مراتب الكمال حين تتهيأ لهم الظروف المناسبة .

---

(١) « شاه عبد العظيم » واحد من أبناء أئمة الشيعة الذين لهم أطرحة تزار للتبرك بها حتى ولم تكن هناك معلومات كثيرة عن تاريخهم وهو يوجد بالرى إحدى ضواحى طهران فى الوقت الحاضر ، وكانت هى العاصمة قديما بينما كانت طهران إحدى ضواحيها (المترجم) .

وقد ظل جمال الدين يجوب البلاد شرقا وغربا وينتقل بين مختلف الدول ، ولكنه كان يذكر إيران وطنه أينما ذهب ويتمنى أن تتهيأ له الظروف التى تساعده على تشييد صرح الوحدة الإسلامية واتخاذ إيران مركزا لها ، فلما يئس من تحقيق هذا الهدف الأسمى ، أخذ يحاول إيجاد وحدة إسلامية تحت زعامة الدولة العثمانية .

وقد جاء فى المقالات الجمالية ما يثبت هذا ، فقد ورد فيها ما يأتى :

« كان السيد جمال الدين لا يرجو خيرا من إيران مادام الشاه ناصر الدين القاجارى على رأسها ، وكان الشاه المذكور يعلم هذا حق العلم ، فكان يخشى السيد ويتضايق من أحاديثه وأفكاره ، ويتميز غضبا وغيظا من جرأته وصراحته .. فمثلا قال ناصر الدين له بعد وصوله إلى طهران للمرة الثانية : « ياسيدنا لقد أتيت أهلا ونزلت سهلا ، فقل الآن ما تريده وما تطلب منى أن أفعله » .

فقال جمال الدين : « أريد شيئين ؛ أذنا صاغية تسمع ما أقوله ، وإرادة قوية تأمر بتنفيذ ما سمعته » .

فتهيب الشاه ناصر الدين من هذه الجرأة فى الحديث معه بهذا الأسلوب ، وخشى بقاءه فى البلاد ، ثم أمر بإخراجه منها .

وليس عجيبا – بعد هذا – أن يتآمر جمال الدين على الشاه ناصر الدين ويحرص على قتله ، فقد جاء فى المقالات الجمالية مايلى :

« ولما ألقى جمال الدين عصا الترحال بعد زيارته الأخيرة لإيران صمم على الإقامة فى الآستانة والبقاء فيها ، واجتمع حوله مريدوه وكانوا من الإيرانيين ، ثم جاءه رجل هارب من إيران ، يدعى « ميرزا رضا الكرمانى » وكان يعرفه من قبل ، فلما سأله عن سبب فراره من إيران قال له .

« كنت أشتغل بالتجارة فى طهران ، فاشترى أحد أبناء الشاه المسمى « كامران ميرزا » منى بضاعة ، وأمرنى أن أذهب إلى داره لقبض ثمنها ، غير أنه أخذ يماطلنى ويحدد لى مواعيد مختلفة – دون جدوى – حتى انقضت ثلاث سنوات ، فطلبت منه أن يرد البضاعة أو يدفع نصف ثمنها ، ولكنه رفض ثم لم

يلبث أن أمر بضربي وحبسي ، غير أني دبرت وسيلة للفرار من السجن والنجاة بنفسي ، وإن كنت نادما أشد الندم على ما فعلته ، فقد ضاعت مني فرصة الأخذ بالثأر بعدما أصابني من خسارة وذل وهوان .. حقا لقد كان يجب على أن أنتقم لنفسي من هذا الأمير الغاشم الغادر » .

فقال له جمال الدين : « وكيف كنت تنتقم لنفسك لو كنت فى إيران ؟!! .. » .

فقال : « كنت أقتل الأمير ... » .

فقال له جمال الدين : « فما الفائدة إذن من قطع الغصن مع بقاء الأصل ؟!... إن الأولى اجتثاث الشجرة من جذورها .. » .

وقد تأثر ميرزا رضا الكرمانى بكلام جمال الدين غاية التأثر وصمم على العودة إلى إيران وقتل الشاة ناصر الدين ، واستئصال شجرة الظلم من جذورها مهما كلفه هذا الأمر ، ولم يلبث أن رجع إلى إيران خلسة ، ثم اغتال الشاه ناصر الدين فى يوم ١٧ من شهر ذى القعدة من عام ١٣١٣ هـ (١٨٩٦ م) .

وقد أدت هذه الحادثة إلى كشف حقيقة جمال الدين أمام السلطان عبدالحميد العثمانى فأيقن أن جمال الدين إيرانى الأصل ، شيعى المذهب ، وكان كشف هذه الحقيقة ضربة قاضية على جمال الدين ، فقد أرسل الشاه مظفر الدين ابن ناصر الدين وثيقة إلى علاء الملك سفيره فى تركيا تثبت أن جمال الدين إيرانى الأصل وأنه يختفى فى ثوب أفغانى ويتخذ المذهب السنى ستارا يحتمى به فى أثناء إقامته فى ديار الدولة العثمانية السنية ، وسلم سفير الشاه الوثيقة للحكومة التركية فعرف السلطان العثمانى حقيقة جمال الدين ، ودبر وسيلة للتخلص منه بدس السم له ، وكانت هذه الوسيلة هى طريقة السلاطين العثمانيين للتخلص من الذين لا يرغبون فى بقائهم على قيد الحياة .

ومن المعروف كذلك أن جمال الدين كان له دور واضح ملموس فى إلغاء امتياز التبغ الذى منحه الشاه ناصر الدين لإحدى الشركات الأجنبية ، وأنه ذهب لمقابلة العالم الأكبر والمرجع الأول للشيعة فى ذلك الوقت – ميرزا حسن

الشيرازى – فى مدينة سامراء ، وقدم له مذكرة ضمنها الأدلة والبراهين القاطعة التى تثبت فساد الشاه ناصر الدين وعدم أهليته لحكم بلد من بلاد المسلمين ، وبين فى هذه المذكرة الأضرار التى تلحق بإيران والعالم الإسلامى من جراء استعمال التبغ .

والمذكرة منشورة متداولة ، وهى تبدأ باصطلاحات خاصة بالشيعة فى مخاطبة كبار علماء الدين منهم ، وهى اصطلاحات وألقاب لم تكن مستعملة عند غير الإيرانيين من المسلمين .

وقد ترتب على هذا أن « ميرزا حسن الشيرازى » أفتى بتحريم استعمال التبغ ، والتعامل مع الشركة الإنجليزية – التى حصلت على امتياز التبغ الإيرانى – الأمر الذى أدى إلى إلغاء هذا الامتياز وتأميم تجارة التبغ الإيرانى ويعد هذا أول تأميم حدث فى البلاد الإسلامية .

وهذه الأحداث كلها شواهد صدق على أن جمال الدين كان إيرانيا شيعيا ، إذ ليس من المعقول أن يهتم غير إيرانى بأحداث إيران كما اهتم جمال الدين ، فاهتمامه بأحداث إيران وأوضاعها وإشادته بالإيرانيين وذكائهم وتمرده على الأوضاع الفاسدة فى إيران وتحريضه على قتل ملكها ، وتعريضه نفسه للخطر والهلاك من أجل الإطاحة بهذا الملك ، كل ذلك يثبت – بما لا يدع مجالا للشك – أنه كان إيرانيا شيعيا ، ولم يكن أفغانيا سنيا كما بدا أمام الناس .

بل لقد ظهر تعصب جمال الدين لإيران وللمذهب الشيعى فى اختياره لمن يقوم على خدمته ويعنى بمصالحه الخاصة ، فقد اختار خادما إيرانيا يدعى « أبا تراب » ، وكان هذا الخادم ملازما له أينما ذهب ، كما كان أمينا على أسراره الخاصة .

و « أبو تراب » اسم من الصعب وجوده فى غير إيران ، فهو من الأسماء التى يتسمى بها الإيرانيون دون غيرهم ، لأنه لقب من الألقاب الخاصة بأمير المؤمنين على بن أبى طالب – رضى الله عنه – .

وكون خادمه يسمى « أبا تراب » من القرائن الدالة على أن جمال الدين إيرانى شيعى ، كما أن حرصه على أن يكون توقيعه « جمال الدين الحسينى » يدل على ذلك ، لأن لقب الحسينى له معنى خاص عند الإيرانيين الذين يتعلقون بعلى وآله بعامة وبالحسين بن على بخاصة ، ويعدونه سيد الشهداء ، وقد كان جمال الدين يعد نفسه من نسله .

هذه كلها دلائل تجعلنى أقطع بأن جمال الدين كان إيرانيا شيعيا ، ولم يكن أفغانيا سنيا ، أما اشتهاره بين الناس منسوبا إلى بلاد الأفغان ، فكان وسيلة للوصول إلى أغراضه وتحقيق أهدافه التى توفى قبل أن يحققها ، نتيجة للظروف التى أحاطت به ، وأدت إلى اكتشاف أمره وظهور حقيقته ، وموته مسموما بعد كشف هذه الحقيقة أمام السلطان العثمانى السنى .

وقد أردت بهذه الدراسة الموجزة لأصل جمال الدين وحقيقته أن أكشف جانبا من جوانب شخصية هذا المصلح المعروف ، وأن ألقى ضوءا كاشفا على أصله وحقيقته ، لتتضح هذه الحقيقة وضوحا لايدع مجالا لأدنى شك بعد ذلك ، لأن الحقيقة العلمية هى غاية الدارسين - كما ذكرت - ، فأردت إثباتها ، لأسكت أصوات الجدل التى ترتفع بين حين وآخر بعد أن تسفر الحقيقة عن وجهها ، وتتضح وضوحا تاما لايدع مجالا لأدنى شك .

وأنا حين أثبت هذه الحقيقة أؤدى - فى اعتقادى - خدمة لتاريخ الشرق الإسلامى الحديث بعامة ، ولتاريخ البلاد والشعوب التى زارها جمال الدين وأقام فيها بخاصة .

ولست فى حاجة إلى أن أذكر أن كشف حقيقة جمال الدين وإثبات أنه إيرانى شيعى لايعد إفحاما لمن يظنون أنه أفغانى سنى ، كما لا يعد مفخرة للإيرانيين ، لأن المصلحين من المسلمين ملك للمسلمين جميعا ، لأن جمال الدين كان يدعو إلى توحيد الدول الإسلامية ، وجمع شمل المسلمين فى وحدة شاملة ترفع قدرهم وتعلى شأنهم .

وقد آثرت أن يكون ما كتبته لإظهار حقيقة جمال الدين مقدمة لهذا الكتاب الذى ترجمته عن الفارسية ، وهو الكتاب الذى ألفه ابن أخته « **ميرزا لطف الله خان الأسد آبادى** » وضمنه معلومات عن جمال الدين وأعماله وآثاره .

وتنحصر أهمية هذا الكتاب فى دقة الوقائع التى ذكرها المؤلف عن خاله جمال الدين ، وصحة التواريخ التى ذكرها للأحداث المختلفة ، وهى من الأمور ذات الأهمية عند المؤرخين بخاصة والدارسين بعامة .

وبرغم صلة القرابة التى تربط بين المؤلف وخاله الذى يكتب عنه فإن المعلومات التى تضمنها الكتاب تلقى أضواء كاشفة على شخصية جمال الدين وأعماله وآثاره ، وإن كانت لاتخلو من التعصب والتحيز والمبالغة فى وصف نبوغ جمال الدين المبكر وذكائه الخارق وشخصيته الجذابة التى جعلته زعيما وموجها منذ شبابه الباكر ، بصورة ملفتة للأنظار ، قَلّ أن يرى التاريخ لها مثيلا .

ولكن الباحث المنصف يستطيع أن يستخلص الحقائق بسهولة ويقيم دراسته لجمال الدين مستفيدا من سرد الأحداث المتعلقة به فى مراحل حياته المختلفة بدقة وتسلسل وصحة فى تواريخها دون تأثر برأى المؤلف فى خاله وإعجابه بكل أعماله وتصرفاته وتمجيده لذكائه الخارق ونبوغه المبكر ، ومقومات الزعامة فى شخصيته .

على أن المبالغة فى ذكر محاسن جمال الدين لاتنفى وجود مثل هذه المحاسن بدرجات متفاوتة ، وصور متنوعة .

وقد آثرت أن أضم إلى الكتاب بعض ما كتب عن جمال الدين من مقالات فى الصحف والمجلات ، وهى مقالات كتبها معاصروه وزملاؤه وأصدقاؤه ومريدوه ، كما ضممت إليه شيئا مما كتبه جمال الدين عن نفسه ، وهو يعد من ألوان السيرة الذاتية ، وترجمت هذه الأشياء جميعها عن الفارسية حتى يستكمل القارئ معلوماته عن جمال الدين وأفكاره ودعوته الإصلاحية ، فيستطيع إدراك الحقيقة بعد الإحاطة بهذه المعلومات جميعها .

وهناك مجموعة من الرسائل نشرت أخيراً عن جمال الدين إلى جانب مذكراته . سوف يتضمنها كتاب آخر لاحق بعد ترجمتها إلى العربية مع التعليق عليها وتقديم دراسة لها بعون الله وتوفيقه ، وأرجو أن يكون هذا الكتاب فصل الخطاب فى موضوع جمال الدين الذى مازال يحظى باهتمام الناس إلى يومنا هذا .

والشئ الذى لا شك فيه أن سيرة جمال الدين تستحق الدراسة وفيها ما يصلح للعبرة والتأسى ، ومما لا شك فيه – كذلك – أن الحياة بخيلة بالرجال الأفذاذ – من أمثال جمال الدين – فهى لا تجود بهم فى كل وقت وحين ، ولا سبيل إلى معالجة بخل الحياة بكبار المصلحين إلا بتقدير هؤلاء المصلحين متى جادت بهم الحياة ، ودراسة سيرهم وأعمالهم ، والإبقاء على مبادئهم الإصلاحية لتستفيد منها الأمة الإسلامية فى مختلف العصور ، وتستمد منها ما كانت تستمده من المصلحين أنفسهم فى أثناء حياتهم ، وتستفيد منها ، وتجنى ثمار هذه الاستفادة بين الحين والحين .

ولعل هذا هو الذى دفعنى إلى معاودة الحديث عن جمال الدين ، ومحاولة إضافة حلقة جديدة إلى سلسلة الدراسات المتصلة به ، لكشف جانب من جوانب شخصيته ، وتصحيح خطأ اشتهر حتى كاد يغطى على حقيقة جمال الدين .

وأنا أعتقد أن الحديث عن جمال الدين جديد فى كل حين ، لأننا محتاجون – دائما – إلى دراسة الدعوات الإصلاحية الإسلامية ، لأن مثل هذه الدعوات لا تبلى جدتها ، ولا تفقد روعتها ، مهما طال عليها الزمان ، وتعاقب عليها الحدثان ، بل إن كثرة الحديث عنها من وسائل المحافظة عليها ، والدعوة إلى الاستفادة منها .

وإنه لمن فضل الله العلى القدير ، ومن يمن الطالع أن يظهر هذا الكتاب الصغير فى وقت توجد فيه نهضات متوثبة فى الدول الإسلامية المختلفة ، ورغبة صادقة فى التقدم والتآلف والأخذ بأسباب العزة والكرامة ، والعمل على استرجاع الأمجاد السالفة ، وإعادة بناء صرح الحضارة الإسلامية الفاضلة ، وهذه أشياء كان جمال الدين نفسه يدعو إليها ، ويتمنى تحقيقها .

ولاشك فى أن أروع إحياء لذكرى جمال الدين أن تخرج أفكاره إلى حيز التنفيذ ، حتى يونع غرسه ويثمر ويؤتى أكله كل حين بإذن ربه ، فتستقر روحه الهائمة ، حين تصبح مبادئه حية قائمة .

والله أسأل أن يأخذ بيد الأمة الإسلامية إلى طريق الهدى والرشاد ، وأن يهديها الصراط المستقيم حتى تظفر بالسعادة والعزة والكرامة فى الدنيا والآخرة .

والله ولى التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل

المدينة المنورة فى ٧ ربيع الأول من عام ١٤٠٥ هـ
الموافق ٢٩ نوفمبر من عام ١٩٨٤ م

فاتحـــة

يقول الحكماء : « إن تقدير العظماء من الرجال وتكريمهم دليل على أصالة الأمم وعظمتها » .

وهذا الأمر لا يتعلق بصلات الأفراد بعضهم بالبعض الآخر ، بل يتعداه إلى حياة الأمم الاجتماعية ، وله خطره وأهميته ، وله من الفائدة ما لحفظ الآثار القديمة والفنون الجميلة .

وإظهار التقدير والاحترام بالنسبة لمشاهير الرجال وأصحاب الفضل في أمة من الأمم هو الذي يعمل على حفظ اسمها وسمعتها من الزوال ، ويكون سببا في إعلاء شأنها ، وتخليدها في التاريخ ، ويوجه إليها أنظار المحققين ، كما يكون باعثا على تشجيع أفراد الأجيال الحاضرة ، وتنمية عزة النفس وقوة الإرادة فيهم ، فيدفعهم هذا إلى العمل والسمو والرفعة .

ولما كان الباحث عن أي عمل من أعمال البشر إما أن يكون ماديا أو معنويا – أي أن كل عمل من أعمالنا يقوم على الأمل في فائدة مادية أو معنوية – فإننا نجد دائما الآمال والدوافع العظيمة في مثل هذه الأعمال ، وهي تدفع إلى تقديم التضحيات الضخمة ، والاستهانة بكل شيئ في سبيل الوصول إلى الغاية المنشودة .

ولا شك أن تخليد ذكر العظماء والإشادة بما قاموا به من أعمال يعد نوعا من التكريم والتبجيل لهم ، فضلا عن أنه يقوي روح التضحية والعمل في نفوس الآخرين .

فالتقدير إنما هو مكافأة اجتماعية ، وتجب رعايته لا فى حق الأحياء فحسب بل في حق الأموات أيضاً ، حتى يتشجع الأحياء ، ويعدوا أنفسهم للقيام بالأعمال الخطيرة .

وينبغى أن نضع نصب أعيننا مسألتين هامتين ، ونحن نقدر الرجال وأعمالهم ، وهما مسألتان قد يخطئ أغلب الإيرانيين في فهمهما وتمييزهما : أما المسألة الأولى فهي أن تقدر أعمال الشخص على ضوء الظروف التي وجدت في عصره لا بحكم الظروف التي كانت قبله ، أو التي تكون بعده . فمثلا إذا أردنا أن نعرف بالأعمال التي أداها ملك أو فيلسوف أو عالم أو أديب أو شاعر ، فيجب أن نأخذ في اعتبارنا أوضاع العصر الذي عاش فيه ذلك الشخص ، وأن نلمس النتائج التي ترتبت على خدماته وأفكاره ، حتى يمكننا بذلك أن نقدر قيمة أعماله وأهميتها . أما إذا عملنا غير ذلك فقسنا أعماله وفقا لمقتضيات زماننا ، فإننا سنقع في الخطأ كما يخطئ معظم المحدثين في إيران ، فيعدون أغلب العظماء والأدباء والمفكرين والعلماء من الإيرانيين عارين عن كل ميزة أو فضل .

أما المسألة الأخرى فهي أنه لو استعمل أحد العباقرة غاية ذكائه وقدرته ولباقته ، دون أن يُوَفَّق في الوصول إلى أهدافه السامية نتيجة لتضافر الموانع المختلفة أو لقصر أجله ، فإنه لا ينبغي التقليل من مكانته ورفعته ، لأن الجهاد في سبيل الحق يجب أن يقبل ويقدر ، حتى ولو لم يؤد إلى نتيجة تناسب ما بذل من جهد ، لأن الأساس هو حسن النية وسلامة الهدف .

وبناء على هذا الأساس يمكن أن يعد السيد جمال الدين الأسد آبادي أحد النوابغ السياسيين والمفكرين في هذا القرن الأخير ، ولو أن هدفه الأساسي ، وغايته السياسية كانا توحيد العالم الإسلامي ، واتحاد المسلمين ، وهو موضوع لا يعطى قيمة عملية ، وأهمية اجتماعية في الوقت الحاضر ، لأنه اختفى أو كاد يختفي . ورغم أن السيد المعظم لم يظفر بتوفيق كبير في تنفيذ أفكاره ، والوصول إلى هدفه ، لأن جهل الدول الإسلامية وغفلتها ، قد حالا دون جني ثمار شجرة فكرته العظيمة ، إلا أن مقامه بين العلماء والساسة والمفكرين في الشرق والغرب مازال رفيعا ، وسوف يعد دائما من مفاخر إيران وأسباب عظمتها ، لأنه يمكن

القول بأن أغلب النهضات العلمية والسياسية – التي قامت في الدول الإسلامية في العصر الحديث – قد استمدت عناصرها من منبع دعوته وتعاليمه .

وإنه ليجب على كل إيرانى أن يفتخر دائما بوجود مثل هذا الرجل العظيم الذي كان له مثل هذا النوع من نفاذ الكلمة ، وإصابة الرأي ، وكان موضعا لكل هذا التقدير والاحترام ، لا في وطنه فحسب بل في أغلب الأقطار الإسلامية ، وعند أهم الشعوب الغربية . كما ينبغي على إيران أن تسجل اسمه في عداد نوابغها الممتازين في التاريخ ، فإن هذه هي خير طريقة لشكر النعمة التي أنعمها الله عليها بخروج مثل هذا الرجل منها ، كما أنها نوع من إظهار التقدير له ، وليكون – في الوقت نفسه – مثالا للعزم ، وعلو الهمة أمام أعين الشباب من الجيل الجديد .

وقد كتب هذا الكتاب الذي يعد الجزء الأول من شرح حال السيد جمال الدين بقلم المرحوم لطف الله خان الأسد آبادي ابن أخت السيد جمال الدين ، فلما توفي لطف الله خان في عام ١٣٤٠ هـ ، نسخه ابنه الفاضل السيد صفات الله الأسد آبادي ، وأرسله إلى إدارة إيرانشهر لطبعه وكتب في شأن والده ما يأتي .

« كتب والدي المرحوم تاريخ حياة السيد جمال الدين السعيدة من يوم ميلاده حتى وفاته – مسموما في إسلامبول على يد الظالمين – مثل أجداده الطاهرين . وكان ذلك في أيام حياته ، حيث إن تاريخ حياة هذا البدر المنير قد بقيت مجهولة إلى حد ما فى إيران ، وبعض الجهات ، ولذا فقد قمنا بنسخه تلبية لرغبة جناب السيد الحسيب محمد حسن خان آزرمى الأسد آبادي الذي يعد من أبرز الشباب الأحرار المثقفين ، ويسرني أن أقدمه إلى تلك الإدارة المحترمة .

وكان المرحوم ميرزا لطف الله خان يعد في زمرة الأحرار المثقفين ، وكانت مقالاته القيمة – التي تحمل أدبه الرفيع – تنشر في جرائد العاصمة ، وكان من الذين استقوا من فيض فيلسوف المشرق حضرة السيد جمال الدين الأسد آبادي المعروف بالأفغاني ، وكان ملازما له في أثناء زيارتيه لعاصمة إيران ، فاستفاد من فيوضاته المعنوية ، ومكارم أخلاقه الذاتية ، وكان يلازمه ملازمة الظل حتى يغادر إيران .

وهو الذي كان ينسخ مقالات السيد التي كتبها بالفارسية وفضلا عن كونه ابن أخته ، فقد كانت تربطه بالسيد صلة معنوية أخرى ، وتشهد بذلك القصائد والمثنويات التي نظمها في حقه ، كما كان السيد يحب المرحوم والدي حبا خاصا ، فكان كثيرا ما يظهر عطفه عليه أمام الرفيع والوضيع » .

وفيما يلي نص الخطاب الذي أرسله إلى والدي من باريس .

« قرة عيني ميرزا لطف الله ... .

وصلني خطابك الذي ينبئ عن حسن طويتك ، وطهارة سريرتك ، ولياقتك الذاتية ، واستعداداتك الفطرية ، فسررت به كثيرا ، وخصوصا بعبارته التي كانت في غاية التناسق ، وبأسلوبه الرائع ، فضلا عن تشبيهاته الأنيقة ، واستعاراته البديعة ، فيما أروعك من أديب بارع ، إن الأدب للشباب زينة وكمال ، ولكن يجب ألا تقنع بهذا القدر ، لأن القناعة بحد محدود من درجات الكمال – التي لا حد لها ولا نهاية – تعد دليلا على قصر الهمة ، وضعف العزيمة .

وقد ذكرت أنك تريد السفر إلى باريس لزيارتي ، وإن كنت تريد زيارتي فعليك إطاعتي ، وليس الوقت الآن مناسبا للسفر ، وسوف أفكر في دعوتك في الوقت المناسب ، فإذا خالفت أمري ، وأتيت إلى هنا ، فإني أقسم بالله أنك لن تراني في باريس .

بلّغ تحياتي إلى الأحياء من الأصدقاء ... وطالع كتاب « مكارم أخلاق ناصري » في الأخلاق .

جمال الدين الحسيني

• • •

وقد كتبت بعض التفاصيل عن حياة السيد جمال الدين في كتب الأوروبيين والعرب والفرس ، ولكن هذه الكتابات لم تقطع حتى الآن بشيء محقق عن مولده وأصله ونسبه ، مما أدى إلى الشك والتردد في كونه من أسد آباد بإيران .

وهذا الكتاب كفيل بأن يزيل كل شبهة وشك مما علق في الأذهان ، وأن يثبت أن جمال الدين كان إيرانيا أسد آباديا ، ولا يزال أقاربه وبنو رحمه يعيشون في أسد آباد حتى الآن ، ومع ذلك فإن كثيرا من الناس مازالوا يشكون في أنه إيراني أسد آبادي ، ولكن الكتاب سيقرر حقائق لا تدع مجالا للشبهة .

وقد أحاط ميرزا لطف الله بجميع أحوال السيد جمال الدين في أثناء ملازمته له في زيارته لإيران وسجل ذلك في أمانة وصدق ، وكان يلازمه دائما وقد ظهرت صورة ميرزا لطف الله في الصورة التي التقطت للسيد جمال الدين مع زمرة من العلماء في طهران في أثناء اقامته فيها وكان في الصورة يقف خلف السيد تماما .

كما أن البحث الذي كتبه تقي زاده في مجلة « كاوه » التي كانت تطبع حينذاك في برلين يعد من خير ما كتب عن حياة السيد جمال الدين باللغة الفارسية ، فقد لخص فيه نتيجة أبحاث الأوروبيين وتحقيقاتهم ، ولكنه لم يقطع بأن السيد إيراني ، وإن كان قد قال في آخره « إن كون السيد إيرانيا أمر يقرب من اليقين » . وقد كتب في الصفحة العاشرة من العدد الثالث من تلك الجريدة ما يلي .

« يروي أحد المعارف الذي كان مقيما مع السيد في أثناء وجوده في طهران ، وممن اتصلوا به عدة مرات في روسيا أن شابا إيرانيا عرف فيما بعد أنه ابن أخته كان معه في أثناء سفره الأول إلى طهران ، وكان مع السيد بعض صناديق بها كتب عربية ، فأرسلها بواسطة هذا الشاب إلى همدان » .

وهذا الشباب هو – بغير شك – ميرزا لطف الله خان بالذات ، لأنه هو نفسه يذكر في هذا الكتاب أن السيد ترك كتبه في بضعة صناديق – بواسطته – أمانة في دار الحاج أمين الضرب .

وكان المرحوم ميرزا لطف الله خان حيا في عام ١٣٣٩ هـ . أي في وقت طبع مجلة كاوه فاستفاد أيضاً من هذا الشرح الذي ورد ذكره في كاوه ، حتى إنه استعمل عبارة كاوه عينها ، واستعارها في بعض الأماكن .

والواقع أن ما كتبه ميرزا لطف الله خان يلقى ضوءا على كثير من المعلومات الخاصة بحياته ، خصوصا في أيام صباه ، ويسطر أحاديثه مع ناصر الدين شاه ، وهي معلومات لا يمكن الحصول عليها في أي كتاب من الكتب التي تحدثت عن السيد ، ورغم أنه يورد – في بعض الوقائع – تاريخا يختلف عما كتب في المراجع الأخرى ، إلا أننا لم نمسها بل تركناها كما هي .

وكنا – كما ذكرنا في المجلة – قد عزمنا على طبع جميع آثار السيد الفكرية وكتاباته التي جمعها ميرزا لطف الله خان في مجلد واحد ضخم ، فضلا عن طبع هذا التعريف به ، وهي أشياء لم تطبع حتى الآن في أي كتاب ، ولهذا السبب رجونا الفضلاء والأدباء وأولي العلم في داخل إيران وخارجها أن يوافونا بكل جديد لم يذكر عن حياة السيد وأفكاره وأعماله وآثاره ، حتى نضمه إلى هذا السفر ، خدمة للعلم ، وتخليدا لمجد إيران ، ولكن نظرا لعدم إبداء عون كاف لتغطية نفقات طبع الكتاب من ناحية ، ولعدم وصول معلومات إلا من ثلاثة أشخاص هم السيد ميرزا عنايت خان عدالت ، والسيد سيد محمد توفيق – الذي كان من أقارب السيد – والسيد ميرزا حسين دانش ، من جهة أخرى ، فقد اكتفينا بطبع هذا الجزء من الكتاب في الوقت الحاضر ، وسننشر ما كتبه السادة المذكورون في ملحق نضيفه إلى آخر الكتاب لما فيه من معلومات مفيدة .

كما ضممنا إلى هذا الملحق ما كتب في جريدة « وطن » التركية التي تصدر في إسلامبول بقلم عيسى خان الأفغاني ، والقطع والأشعار التي نظمها السيد ميرزا لطف الله خان ، وحاج سيد هادي ، وميرزا صادق البروجردي في مدح السيد مزيدا لاستفادة القراء .

ونرى واجبا علينا أن نشكر في هذا المقام – باسم معارف إيران – السيد ميرزا علي محمد الكاشاني الذي تبرع بمبلغ أربعين جنيها لتغطية نفقات طبع هذا الجزء . ونرجو أرباب الهمة أن يظهروا مثل هذا الكرم في طبع الجزء الثاني ، وأن

يرسل إلينا أولو العلم – أيضاً – كل ما يعرفونه عن حالات السيد وأفكاره وأعماله ، حتى نضمها إلى الجزء الثاني .

ولن نكتب شيئا في هذا الجزء عن شخصية السيد وأفكاره الفلسفية ، وعقائده الاجتماعية .

وسوف نجعل الجزء الثاني – إن شاء الله – يضم مقالاته ، وخطاباته ومذكراته وتأليفاته ، وخصوصا مباحثاته مع الفيلسوف والكاتب الفرنسي المعروف « ارنست رنان » كما سنكتب شرحا لعقائد السيد وأفكاره الفلسفية والاجتماعية وتعليقنا عليها .

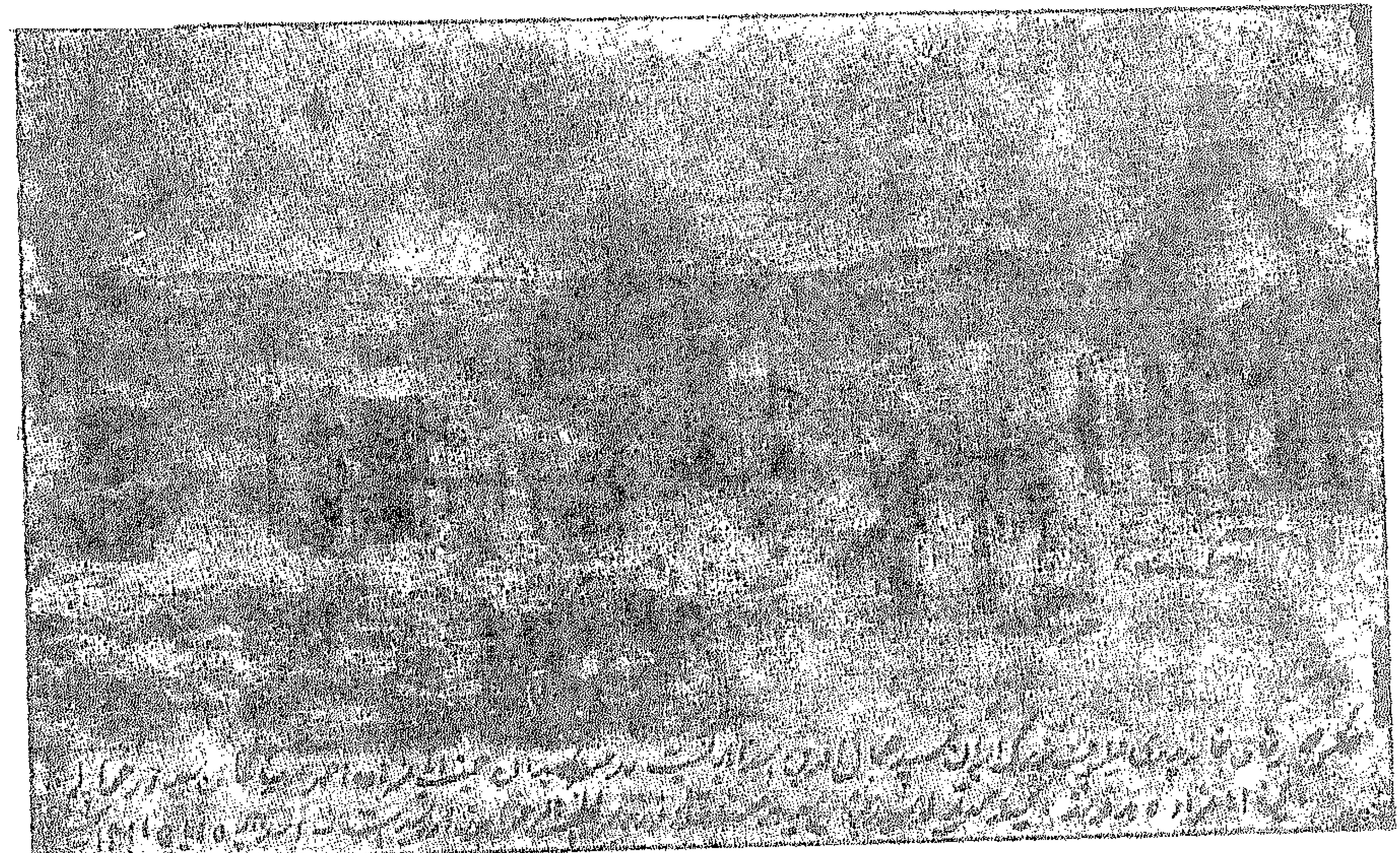
ونكتفي الآن بذكر أن حياة هذا النابغة الإيراني المضطربة المزعجة ، وإرادته الثابتة ، وقوة احتماله ينبغي أن تكون قدوة لكل من يطلب المجد والرفعة .

برلين آذرماه ١٣٠٤ هـ . (نوفمبر ١٩٢٥ م) .

حسين كاظمزاده إيرانشهر

١ – نسب السيد جمال الدين ومولده

من المحقق أن جد فيلسوف الإسلام الأعظم السيد جمال الدين – قدس الله سره العزيز – قد توطن في أسد آباد منذ سنة ٦٧٣ هـ . وقد عرفت أسماء آبائه وأجداده خلفا بعد سلف ونسلا بعد نسل من بعض الكتابات الموجودة ، وخصوصا من ألواح قبور أجداده التي تقع بجوار قبر الإمام زاده[1] أحمد في حي سيدان (السادة) القريب من منزل أبي السيد وأجداده منذ سنة ٦٨٢ إلى يومنا هذا ، أي ما يقرب من أربعمائة وسبع وسبعين سنة[2] .



● تمثل هذه الصورة منزل أسرة فيلسوف إيران الكبير السيد جمال الدين الأسد آبادي في حي سيدان (أي السادة) بجوار ضريح الشريف أحمد (أو أحمد ابن الإمام) وأجداد السيد مدفونون حول هذا الضريح .

---

(١) « إمامزاده » يعني ابن الإمام ، وهو لقب يطلقه الشيعة على أبناء أئمتهم .

(٢) يقصد المدة منذ التاريخ المذكور إلى وقت تأليف الرسالة .

ويرى في الصورة شخص يشير إلى باب المنزل الذي ولد فيه السيد جمال الدين وهو صفات الله بن ميرزا لطف الله بن أخت السيد جمال الدين نفسه .

أسد آباد في ١٥ من شهر آبان عام ١٣١١ هجرية شمسية الموافق عام ١٩٣٢ ميلادية

وقد استشهد جده الأكبر في نفس سنة ٨٦٢ هـ كما استشهد هو وأجداده العظام .

والمهم أنه أسد آبادى وأن شمسه قد طلعت وأشرق نورها من برج الأسد[١] .

وكان آباؤه وأجداده من السادات جليلي القدر ، عظيمي الشأن ، فكان كل واحد منهم على قدر مرتبته ، ذا نصيب وافر ، وقدر راسخ من العلوم والفضائل .

وكانوا مشهورين في هذه الولاية بالرفعة والعظمة ولذلك ذكرت أسماء بعضهم – على ألواح قبورهم – بالتجلة والاحترام مثل : « نخبة الأكابر ومنقبة الأخيار جلال الدولة والدين السيد الصالح السعيد الشهيد الملقب بشيخ الإسلام والمنسوب بقاضي » .

وهم يعرفون في أسد آباد باسم طائفة « شيخ الإسلام » وفضلا عن مراتبهم العملية ، فإن بعضهم قد اشتهر – أيضاً – بحسن الخط : مثل عم السيد جمال الدين مير زكي ، وخاليه ميرزا جلال وميرزا جواد الذين يطول بنا المقام إذا تعرضنا لشرح أحوالهم . وكان أبوه وأمه من أصل واحد .

وقد كان – ولا يزال – لخواص هذه الولاية وعوامها اعتقاد تام في شرف أسرتهم الجليلة وكرامتها ، واعتماد كامل عليها لأنها كانت ملجأ الأهالي عامة منذ قديم الأيام ، كما كان لها احترام فائق لدى حكام العصر وأعيانه وأشرافه . ولازالت

---

(١) يقصد أسد آباد .

نظرة الناس إليهم تحمل هذا الطابع إلى وقتنا هذا من الكبير والصغير والغني والفقير .

وينسب البعض إلى سلسلتهم الجليلة الكرامات وخوارق العادات التي تتناقلها الألسن .

وكان والده الماجد مزدانا بجمال فنون العلوم والفضائل الظاهرية والمعنوية ، كما كان هذا السيد المتواضع الخجول ساكتا صامتا ، ذا أخلاق حميدة ، وزهد وورع ، وعذوبة لسان ، وكان معاصرا ومعاشرا للمرحوم الشيخ مرتضى(١) – طاب ثراه – وقد عهد إليه الشيخ مرتضى أمر فتاوى المسلمين ، ولكنه كان لا يشغل نفسه بأمور الدنيا ، كما كان يتجنب الوساطات ويقنع بما تدره عليه مزرعته ، وحديقته الصغيرة ويستعين به في أمور معيشته ، وكان صديقا لأكثر العلماء المعروفين المعاصرين ، ويكفيه فخرا أن يكون أبا ومربيا ومعلما لابن مثل السيد جمال الدين .

وهو السيد صفدر بن السيد علي بن مير رضى الدين محمد الحسيني شيخ الإسلام ابن مير زين الدين الحسيني القاضي ابن مير ظهير الدين محمد الحسيني شيخ الإسلام ابن مير أصيل الدين محمد الحسيني شيخ الإسلام .

وأما والدته الماجدة فهي السيدة سكينة بيكَم بنت مير شرف الدين الحسيني القاضي الذي تتناقل الأفواه فضله وعلو مرتبته ، وقد كان أخا لمير رضى الدين وهما ابنا مير أصيل الدين . وقد كان لهما إخوة أفاضل آخرون .

وكان مولد العلامة السيد جمال الدين الأسد آبادي في شهر شعبان من عام ١٢٥٤ هـ . وقد اشتق اسمه من الخبر المأثور : « إن الله جميل ويحب الجمال » ، ولم يلبث أن ذاع صيته في المشرق والمغرب ، فصار يعرف في الأقطار الشرقية باسم « حكيم الشرق » وأصبحت تجله الملايين في مصر والهند والسودان وإفريقية

---

(١) هو الشيخ مرتضى الأنصارى الششترى الذي يعده الشيعة من علماء رأس المائة ، وقد بلغ فى الفضل درجة جعلته إماما يقتدى به كل من جاء بعده من العلماء والمجتهدين ، وله مؤلفات كثيرة ، أهمها : الرسائل فى الفقه .

وما بين النهرين وبلاد الروم وبلاد الأفغان ، بيد أننا نحن الإيرانيين لانزال نجهل حقيقة حاله ، وعلو مرتبته ، وسمو منزلته ، بينما هو يعد المجدد الخبير ، والحكيم البصير .

وإذا أراد المصلحون ، والوطنيون المخلصون أن يطلعوا على آثاره ، فليطلبوا من بيروت ومصر الأعداد الثمانية عشرة من مجلة « العروة الوثقى » حيث توجد المقالات الجمالية جميعها ، و« الرسالة النيجرية » في الرد على الدهريين ، و « الحجة البالغة » و « حملة القرآن » و « تاريخ الأفغان » و « فلسفة الدين واللغة » و « مشاهير الشرق تأليف الشيخ محمد عبده » و « تاريخ الإمام » في أربعة مجلدات ، و « بيانات ميرزا محمد باقر خان بواناتي الملقب بإبراهيم جان معطر » ، وقد نشرت جميعها في بيروت ومصر ، وليطلعوا عليها حتى يدركوا رفعة مقام ذلك النابغة الفذ الذي كان وحيد عصره في الممالك الإسلامية ، ويحيطوا بما بذله من جهود في هذا السبيل .

ويروي صفات الله بن ميرزا لطف الله خان مؤلف هذا الكتاب أن السيد جمال الدين لم يتزوج ، ولم يقبل على الأمور الدنيوية ، وكان يفضل أن يعيش عيشة متواضعة .

وكان له ابنا أخت هما ميرزا لطف الله خان – الذي ورد ذكره – وميرزا شريف خان ، كما كان له ابن أخ يدعى السيد كمال الدين .

وقد أغفلنا للأسف الشديد قدر ذلك المصلح الكبير الذي يعتبر باعث نهضة العالم الإسلامي عامة إلى درجة أننا صرنا لانعرف ما إذا كان إيرانيا أم أفغانيا ، وهو أمر يدعو إلى التعجب حقا .

٢ – نشأة السيد الأولى وتحصيلاته في قزوين

ونعود إلى موضوع بحثنا فنقرر أن السيد جمال الدين ظل في المنزل حتى العاشرة ، وكان يتلقن دروسه الأولى تحت إشرافه أبيه ورعايته ، فقرأ القرآن ، وحفظه في بضعة شهور ، كما درس مبادئ اللغة العربية وأتقنها جيداً .

وكان منذ صباه ولعا بالمناقشة في المسائل الدينية ، ومحاولة تفسيرها وإدراك كنهها ، وكان يزداد سرورا كلما بلغ الغاية فيها ، وكان والده يشجعه على ذلك ، ويحفزه على مواصلة السير في هذا الطريق ، فكانت هذه الظاهرة واضحة فيه منذ نعومة أظفاره ، حتى روي أنه كان يكتفي بقراءة بعض الأبواب من الكتب العربية ، ثم يقوم بتدريس الباقي لزملائه ، كما يشهد بذلك ابن خاله العلامة حاج سيد هادي الأسد آبادي الذي لايزال على قيد الحياة[١] .

وصفوة القول : إنه كان أعجوبة في ذكائه ، وقوة حافظته ، وقد ساعده هذا على سرعة تبحره في العلوم الإسلامية المختلفة . وكانت الأسفار هي الهواية المحببة إلى قلبه منذ صغره ، فقام بأسفار متعددة إلى الهند ومصر والبلاد العثمانية وأوروبا .

ولما أحس والده فيه الميل إلى العلم حمله إلى قزوين في عام ١٢٦٤ هـ ، وكان إذ ذاك في العاشرة من عمره ، فمكث عامين في مدرستها تحت رعاية والده الذي كان يعمل مدرسا بها ، وبلغ من شغفه بالعلم أنه كان لا يستريح يوما ، ولا يخرج للتنزه حتى في أيام الأعياد ، مكتفيا بالتسلي بكتبه التي كان يعكف عليها ليل نهار .

وكان ينتهز الليالي القمرية التي يتلألأ فيها القمر ، ليصعد إلى أعلى داره ، ويأخذ في دراسة النجوم .

---

(١) كان حيا في وقت تأليف هذا الكتاب ، أي منذ سبعة وعشرين عاماً .

ومن عجيب ما يروى عن ولعه بالعلم أن وباء أصاب قزوين في السنة التالية لوصوله إليها ، وكان هذا الوباء شديدا بحيث قضى على كثير من أهلها فحاول السيد جمال الدين – وكان إذ ذاك في الحادية عشرة من عمره – أن يدرك أسباب هذا الوباء عن طريق دراسة أجساد الموتى ، الأمر الذي دفع والده إلى الانتقال به إلى طهران .

* * *

٣ - وصول السيد إلى طهران مع والده لأول مرة كما حكاه هو لابن أخته

« وصلنا إلى طهران في أوائل عام ١٢٦٦ هـ ، ونزلنا في محلة « سنكلج » ضيفين على سليمان خان المعروف بصاحب اختيار الذي كان - وقتا ما - حاكما على بلدتنا أسد آباد . ثم سألت عن أكبر علماء طهران في ذلك الوقت . فقيل إنه « أقاسيد صادق » ، فتوجهت إلى مجلس درسه في اليوم التالي دون أن أخبر والدي بذلك ، فوجدته جالسا بين طلابه يقرأ كتابا عربيا ، ويشرح مسألة من المسائل العلمية ، ولاحظت أنه شرحها شرحا مقتضبا ، فطلبت منه أن يعيد شرحها بصورة أكثر تفصيلا ، حتى يتفهمها الجميع ، فتعجب الشيخ من جرأتي ، وفضولي ولكني أجبته بأن طلب العلم لا فضول فيه ، ثم قمت بقراءة تلك المسألة وتفسيرها ، فتحرك الشيخ من مكانه ، فظننت أنه يريد بى شرا ، ولكنه أقبل علي ، وضمني إلى صدره وقبلني ، ثم أرسل إلى والدي يستدعيه ، وأمر أن تشترى لي عباءة وعمامة ، وأن يلبسوني العباءة ، ثم قام هو بلف العمامة ، ووضعها بيده فوق رأسي ، وكنت حتى ذلك الوقت ألبس قلنسوة ، ولا ألبس عمامة » .

* * *

٤ – سفر السيد مع والده إلى العتبات بالعراق وتتلمذه على الشيخ مرتضى

واستضافهم السيد صادق في منزلة بضعة أيام ، وانتشر خبر ذلك في طهران ، فاغتنم كثير من العلماء الفرصة ، وحظوا بمقابلته .

وفي تلك السنة – أي في سنة ١٣٦٦ هـ – سافر مع والده إلى العتبات المقدسة ، وكان سفرهما عن طريق بروجرد ، فلقيا في بروجرد من التكريم والاحترام ما لقياه فى طهران ، فقد رحب بهما المرحوم الحاج ميرزا محمود المجتهد ، وكان رجلا فاضلا عالما ، وقد أعجب بالسيد فاستضافه هو ووالده ثلاثة أشهر تقريبا ، ثم وصلا بعد ذلك إلى العتبات فقاما بزيارة قبور الأئمة الأطهار ، وتشرفا بعد ذلك بمقابلة الشيخ مرتضى فلما علم بمنزلة والد السيد في العلم والفضل ، واستعداد السيد وذكائه عين لهما منزلا خاصا .

وظل السيد أربع سنوات في الدراسة والتحصيل أكمل فيها تحصيل العلوم المختلفة من تفسير وحديث وحكمة ومنطق وأصول وعلم كلام ، وعلوم عقلية ، وفلسفة إلهية ، وطبيعية ، ورياضية ، وطب ، وتشريح ، وهيئة ونجوم .

أما والده فقد استأذن في العودة إلى أسد آباد بعد بضعة شهور ، فأذن له الشيخ مرتضى ، وأجاز له أن يروي عنه الأحكام لكل من يريد فتوى في الدين ، وتعهد الشيخ مرتضى بنفقات السيد في المدة التي يقضيها في النجف بالعراق .

وقد أبدى السيد تفوقا عجيبا في أثناء المدة التي قضاها ، وعرف عند علماء النجف وكربلاء وسامراء ، وذاع صيته بالتدريج في كل ناد ومحفل ، وانقسم الناس في شأنه قسمين ، قسم يؤيده ، وقسم يخالفه ويحقد عليه ويشيع حوله الشبهات والظنون ، وكان رجال هذا القسم يجادلونه أحيانا في حضرة الشيخ مرتضى ، ولكن الشيخ كان يؤيده ويعطف عليه كثيرا ويكتب لوالده مثنيا

على ذكاء ابنه ، ومبشرا إياه بمستقبل عظيم له . وأخيرا دبر جماعة من علماء السوء مكيدة للسيد ، وعلم الشيخ مرتضى بحقيقة نواياهم ، فأرسله مع شيخ جليل القدر إلى الهند ، وأوصى به أتباعه ومريديه هناك ، وكان السيد حينذاك فى السادسة عشرة من عمره حينما وصل إلى بمباي في سنة ١٢٧٠ هـ .

* * *

٥ - رحلة السيد إلى مكة عن طريق الهند ثم سفره إلى أفغانستان عن طريق طهران ومشهد

وصل السيد إلى بوشهر ، وكان من أهم ما حدث في هذه المدينة إعجاب كبير علمائها الشيخ محمد باقر خان البواناتي به واعتقاده في صحة آرائه ، واتباعه لنصائحه وإرشاداته . وكان الشيخ محمد باقر هذا يسمى « يوحنا » زمانه لما عرف به من علم وفضل شهدت بهما رسالتاه « الرسالة الشمسية اللدنية » و « الرسالة الصدرية الناسوتية » .

وكان السيد طول مدة إقامته في بوشهر ضيفا على الحاج عبدالنبى آل صفر . وقد ارتحل منها إلى الهند فمكث فيها سنة وبضعة أشهر ، فدرس هناك العلوم الأوربية والرياضية الحديثة . ومكث عدة أشهر في دار الحاج عبدالكريم بكلكتة ثم أبحر من هناك قاصدا مكة .

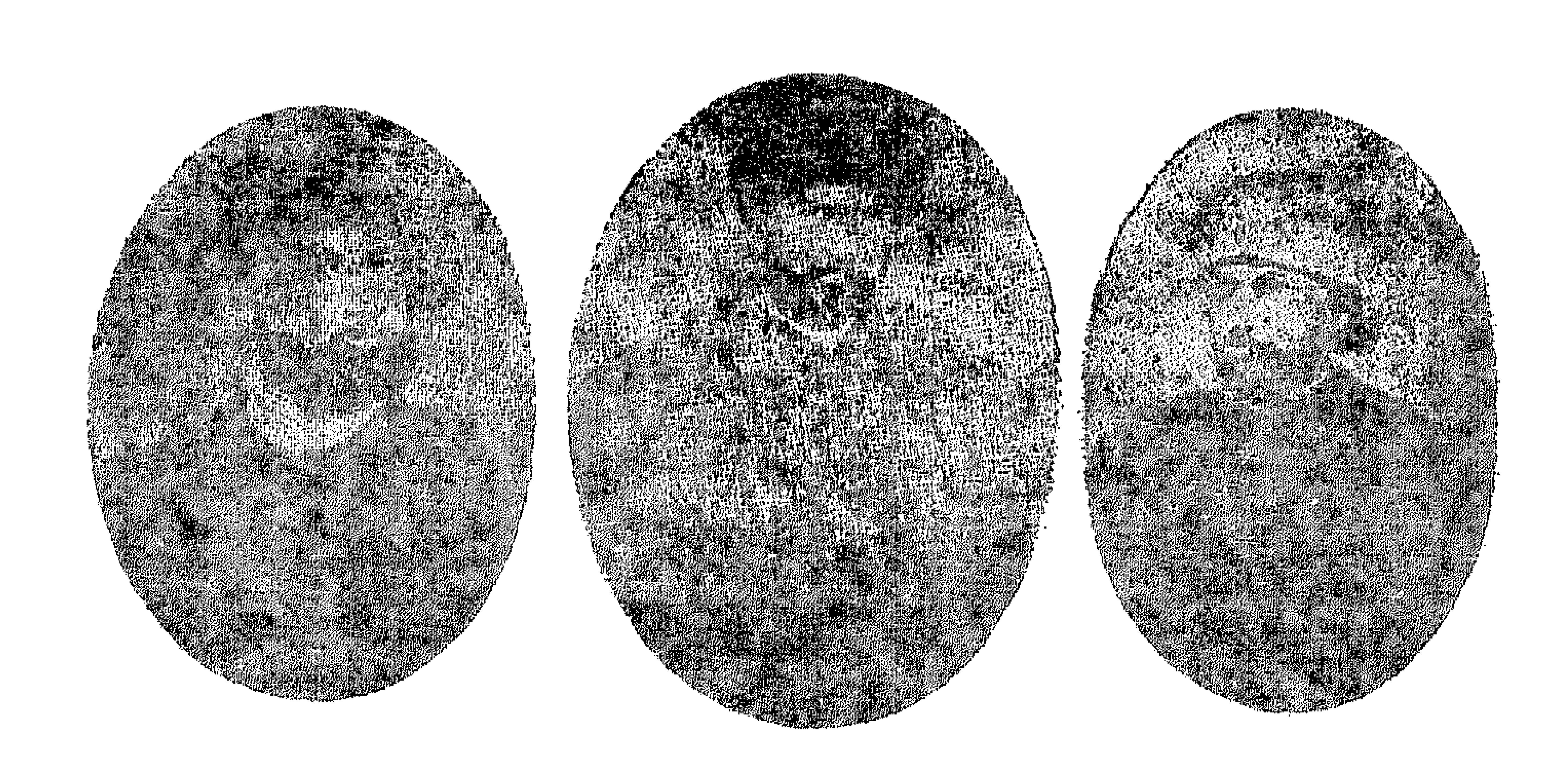
وقد طالت هذه الرحلة مدة ، لأنه كان يتوقف في البلاد التي يمر بها أياما .

وقد أقام في الحجاز مدة ، أخذ فيها يباحث العلماء والفقهاء وقد تحمل متاعب كثيرة في إقناعهم بضرورة إيجاد وحدة إسلامية .

وكانت زيارة جمال الدين لبيت الله الحرام في عام ١٢٧٤ هـ ، ثم رجع بعد ذلك إلى النجف وكربلاء ثانية ، وعزم على زيارة خراسان وأفغانستان عن طريق أسد آباد – مسقط رأسه – فلما وصل إلى أسد آباد أقام فيها ثلاثة أيام تلبية لرغبة والده ، قضى يومين منها في بيت الأسرة ، واليوم الثالث في منزل إحدى شقيقاته ، ثم غادرها في اليوم الرابع إلى طهران ، فأقام فيها بضعة أشهر حاول في خلالها تنوير أذهان الناس والأخذ بأيديهم إلى طريق الهداية والرشاد . واتصل به فيها ميرزا بابا الذهبي شيخ الطريقة الذهبية ففتن به من أول جلسة ، ونسي مقامه في الطريقة وأصبح من أتباع السيد ومريديه .

ثم غادر السيد طهران إلى خراسان ، وكانت حالته الصحية متوعكة ، وتصادف أن أغارت على قافلته في أثناء الطريق جماعة من التركمان ، ونهبت كل ما معها ، ولكن السيد قابل أفراد هذه الجماعة ووجه إليهم نصائح طيبة ، فندموا على ما فعلوا وردوا جميع الأموال التي نهبوها . ثم توجه السيد إلى مشهد حيث نال شرف زيارة قبر الإمام الرضا ، وقصد بعد ذلك إلى كابل ، وكانت هدفه الأول وهناك اتصل بأميرها وتوثقت الصلة بينه وبين الأمير دوست محمد خان ، وأخذ السيد يوجه كل عنايته لإرشاد الناس وهدايتهم ، كما فعل في الأماكن الأخرى التي زارها ، كما أخذ يدعو إلى الوحدة الإسلامية .

وأقام جمال الدين في أفغانستان ما يقرب من خمس سنوات ، ألف في خلالها كتاب « تاريخ الأفغان » باللغة العربية . ويعد هذا الكتاب من أروع آثاره ، وقد ساعد السيد على إيقاظ الشعب الأفغاني من سباته ، وتنوير بصيرته بفضل ما كان يوجهه من إرشادات ونصائح قيمة وهذا هو السبب الذي جعل الأفغانيين يذكرون اسمه بالخير ، ويحيطونه بالتكريم والتبجيل حتى الآن ، لأنهم يعدونه رائدا وقائدا لهم ، ويتباهون بنسبته إلى بلادهم ، وهي النسبة التي عرف السيد بها .



السيد في أزياء ثلاثة والصورة الوسطى تمثله في لباس علماء الشيعة الإيرانيين

وقد شغل السيد عدة مناصب كبيرة فى المدة التي قضاها في أفغانستان ، حتى قيل إنه ولي منصب الوزارة للأمير محمد أعظم خان ، وإن الأمير المذكور كان لايعمل شيئا إلا بمشورته . وقد كان السيد في صحبة هذا الأمير حينما حارب صهره وابن عمه الأمير دوست محمد خان في عام ١٢٧٩ هـ . ثم حدث أن توفي الأمير دوست محمد خان في تلك السنة ، ثم قامت حروب أهلية ذاعت أخبارها على صفحات الجرائد ، ثم أغار شيرعليخان على كابل – في عام ١٢٨٥ هـ – واعتلى العرش للمرة الثانية ، مما اضطر محمد أعظم خان إلى الرحيل إلى نيسابور (في إيران) ، كما رحل ابن أخيه الأمير عبدالرحمن خان إلى بخارى . ولكن السيد جمال الدين ظل مقيما في كابل فلم يأخذه خوف أو وجل من اعتلاء الأمير شير عليخان العرش ، ولم يتعرض له الأمير الجديد بسوء لمكانته وهيبته وصراحة قوله ، ولكن السيد عاد ففضل الرحيل من أفغانستان بحجة الذهاب إلى الحج ، فسافر عن طريق الهند لأن الأمير أخذ عليه العهد بعدم العودة إلى إيران ، خشية أن ينضم إلى الأمير محمد أعظم خان الذي كان قد لجأ إليها بعد فراره كما تقدم .

* * *

٦ – سفر السيد من أفغانستان إلى مكة
ووصوله إلى الآستانة عن طريق مصر

وصل السيد إلى الهند في عام ١٢٨٥ وأقام فيها شهرا حظر عليه فيه أن يختلط بالناس ، ثم سافر منها بحرا إلى مصر فمكث فيها أربعين يوما اتصل في أثنائها بعلماء الأزهر وحدثهم بآرائه ، وما يراه من ضرورة إيجاد وحدة إسلامية ، ثم غير جمال الدين وجهته فعزم على زيارة إسلامبول بدلاً من مكة ، فسافر إلى إسلامبول حيث وجد ترحيبا شديداً من عالي باشا الصدر الأعظم ومن فؤاد باشا ، وكانا من أبرز ساسة الأتراك العثمانيين في ذلك الوقت ، ونال بذلك الحظوة لدى السلطان .

وكانت قضية اليمن حينذاك تشغل أذهان السلطان ورجال دولته ، وكانت الآراء تختلف حولها ، ويحاول كل ذي رأي أن ينفذه مهما احتاج تنفيذه من جهد ووقت . فتعهد جمال الدين بإصلاح الأمور دون حاجة إلى جند أو مال ، واشترط أن يكلفه السلطان بذلك بتفويض منه ومن رجال دولته وزعماء شعبه ، وكان ميرزا حسن صديقا للسيد فنقل هذا المطلب إلى الجهات المختصة فخشى العظماء والزعماء أن تكون إجابة السيد إلى طلبه مدعاة للإقلال من نفوذهم ، فأشاروا بإبعاد السيد عن تركيا .

كما حدث شيء آخر ساعد على إبعاده هو أن تحسين أفندي مدير دار الفنون طلب منه أن يلقي محاضرة على الطلاب ، فألقى السيد هذه المحاضرة في حضور صفوت باشا وزير المعارف وحنيف أفندي وزير المعارف السابق – وسفير تركيا الأسبق في طهران – .

وقد أول شيخ الإسلام جملة من حديث السيد تأويلا يخالف الواقع ، مما أدى إلى إثارة الرأي العام ضده وهياجه[1] . وانتهى الأمر بأن أصدر السلطان أمرا بإخراج السيد من إسلامبول .

والواقع أن شيخ الإسلام حقد على السيد منذ وصوله إلى إسلامبول لما رأى الطبقة المثقفة في هذه المدينة قد تعلقت به ، لأنها رأته شابا عالما وفيلسوفا مصلحا ، فلم يطق هذا الشيخ المسن رؤية شاب إيراني له مثل هذه المنزلة في نظر الطبقة المستنيرة ، فأخذ يدبر له المكائد ، ويتربص به الدوائر ، وينتهز الفرص حتى بلغ غايته ، وكان السيد قد أدرك نياته ، وصمم على الرحيل قبل إخراجه .

وقد غادر السيد إسلامبول موليا وجهه شطر الهند عن طريق القاهرة ، فوصل إلى مصر في عيد النوروز .

* * *

(١) ذكر هذا الأمر بالتفصيل فذكرت المحاضرة واعتراض شيخ الإسلام على بعض ما جاء فيها في مقدمة كتاب الرد على الدهريين التى كتبها الشيخ محمد عبده .

٧ - وصول السيد إلى مصر للمرة الثانية ونشاطه فيها

لم يكد جمال الدين يصل إلى القاهرة حتى قابله رياض باشا رئيس وزرائها ، فأعجب بعلمه وفضله ، فأقام السيد في مصر والتف حوله علماء الأزهر وطلابه ، فأخذ يدرس لهم في منزله أولا ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الجامع الأزهر ، وأخذت شهرته تزداد يوما بعد يوم ، وقوي نفوذه واتسع ، وعلت منزلته في النفوس ، وقد قام بتدريس الفلسفة الإلهية بصورة عملية ، ففتن به الطلاب وأحبوه حبا جما .

وقد أقام السيد في مصر ما يقرب من عشر سنوات أدى فيها خدمات جليلة لمصر والمصريين ، وكان من تلاميذه في أثنائها المهدي السوداني ، فقد درس عليه أربع سنوات ، كما استفاد أديب إسحق الكاتب المشهور من علمه كثيرا .

وإني - صفات الله خان ابن لطف الله خان مؤلف هذا الكتاب - أرى إتماما للفائدة أن أضيف في هذا المقام .

ما جاء في كتاب « كَفتار خوش يارقلي »[1] عن الخدمات التي أداها السيد لمصر في أثناء إقامته فيها .

وقد أعجب الشيخ محمد عبده - أكبر علماء مصر - في ذلك الوقت بشخصية جمال الدين ، فلازمه ملازمة الظل ونسي أهله وعشيرته وعزه وجاهه ،

---

(١) ألف هذا الكتاب المرحوم الشيخ محمد محلاتى الغروى وطبع بسعى واهتمام الأستاذ السيد محمود فى المطبعة العلوية بالنجف الأشرف فى سنة ١٣٤٠ ، ولو أن هذا الكتاب مؤلف فى الحقيقة للرد على ادعاءات ميرزا على محمد الباب ولكنه يتضمن أيضا كثيرا من المعلومات التاريخية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية الخاصة بإيران وما بين النهرين وهو خير مثال يحتذيه علماء الدين الإيرانيين (إيرانشهر) .

فكـان السيد شغله الشاغل ، فأخذ يدرس عليه الفلسفة ، وعلم الكلام ، والفقه والأصول ، والفلسفة الجديدة ، وأصول العصر الحاضر ومبادئه ، وسافر معه إلى أوروبا ، كما تأثر به عرابي باشا والمهدي وتلاميذه وأغلب المثقفين في مصر ، وكانوا جميعا يعملون لخير البلاد ، ورفاهية الشعب المصري ، ونجاته وحريته . وكان السيد يبدو وكأنه صاحب نفس عيسى ، ويد موسى ، فيؤثر فيهم تأثيرا قويا ، وقد أقدم هنا على تأسيس الحزب الوطني ، فهرع إليه الشباب المصري ، فكان لإرشاداته أثر كبير في تهذيب نفوسهم ، فغرس في قلوبهم حب الإسلام ، والعمل على توحيد كلمة المسلمين ، وأيقنوا أن أتباع نصائحه فيها حياة للأمة الإسلامية ، فلبوا دعوته ، وقدروها حق قدرها ، والتف حوله شباب المسلمين ، فافتتح الندوة المصرية التي كانت تضم ثلاثة ملايين نسمة من شباب المسلمين في مصر بمفتاح السعادة الذي كان في يده المباركة ، وانعقدت أول جلسة من جلسات الحزب الوطني المصري برئاسته ، وكان هذا الحزب دقيق التنظيم للغاية ، فلم يكن للصوص مجال بين صفوفه ، وكان محرما على أعضائه أن يتخذوه وسيلة للشهرة أو أن يتخلقوا بأخلاق الأجانب ، فكان الحزب بذلك ميزانا يزن الأشخاص ويفرق بين الغث والسمين ، وكان أعضاؤه بعيدين كل البعد عن العجب والأنانية ، مستعدين كل الاستعداد لبذل كل مرتخص وغال في سبيل رقي البلاد ورفعة شأنها ، وكان جمال الدين على رأسهم يدعوهم ويحمسهم .

وكان عدد أعضاء الحزب الوطني المصري ثلثمائة عضو في قول ، أو أقل من ذلك في أقوال أخرى ، وكان جمال الدين يطلع المجتمعين على حقائق ما في دين الإسلام المبين وشريعة خير المرسلين من سمو ، ورفعة ، في خطب نارية يلقيها بين الحين والحين ، ويبرهن على أن الإسلام أرشد الناس عن طريق كتابه المبين – القرآن الكريم – إلى ما فيه الرقي المادي والمعنوي للطبيعة البشرية .

وبين السيد أن أجدادنا وأسلافنا بلغوا أعلى مراتب العز والسؤدد حينما تمسكوا به ، وألموا بحقائقه ، وحققوا أهدافه .

فلما انحرفوا عن السير في هذا الطريق السوي ، ونبذوا أحكامه وراء ظهورهم ، سقطوا إلى هذا الدرك من الحياة ، لأن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا

ما بأنفسهم ، وأنه لا مجال إلى الشكوى من الأوربيين واتهامهم بأنهم سبب انحطاطنا ، لأن المسلمين لم يذلوا إلا بعد انحرافهم عن الطريق القويم .

ثم بين أن الوسيلة المثلى لخلاص المسلمين مما تردوا فيه إنما هي التمسك بحبل الله المتين كما بين القرآن .

وقد اعتلى السيد منبر الخطابة عند انعقاد الجلسة الخامسة عشرة للحزب الوطني ، وافتتح كلامه بقوله .

اللهم إنك قلت وقولك الحق : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ .

وحيث إن دعوتي قد وجهت إلى هذه النفوس الزكية التي اجتمعت هنا فلبوها طائعين مخلصين لوجهك الكريم ، فاللهم أرشدني حسب قولك الحق إلى سبيل الهداية .

أيها السادة : اعلموا أن المدنية الإنسانية الفاضلة وأن الصراط المستقيم للسعادة لا يتحققان إلا بالقرآن .

فالقرآن الكريم هو الدستور المقدس ، وهو خلاصة أشرف الأديان ، والبرهان القاطع لخاتم الأديان السماوية إلى يوم القيامة ، وهو الذي يكفل السعادة في الدارين ، والنجاة في الحياتين .. فواه لنا كيف غفلنا عن حقيقته !.. .

وقد أخذ هذا الدستور بيد أسلافنا إلى طريق السعادة والمجد ، ورفعهم إلى السماكين رغم أنهم لم يكونوا في درجتنا من الحضارة ، فكيف تركناه وراءنا ظهريا واكتفينا بتلاوته على القبور في ليالي الجمع ، وجعل تلاوته وسيلة يشغل الصائمون بها أوقاتهم ، ويتسلى بها الأطفال في المكاتب ، واتخذنا منه التعاويذ والنذور والقرابين وجعلناه مطية للأيمان الكاذبة ووسيلة للتسول ، وزينة لرقاب الأطفال ، وقلائد العرائس ، ومعاصم الخبازين ، وحماية للمسافرين ، وسلاحا لمن أصابهم مس من الجن ، وزينة للحفلات وأقواس النصر ، وحرزا للمصارعين ، وسلعة للتجارة بين البلاد المختلفة ، ورأس مال لباعة الكتب ، وتبركا في الانتقال

من بيت إلى آخر ، وآلة في يد الشحاذين من أراذل الرجال والنساء في الطريق والشوارع .. فوا أسفاه !.. .

ان سورة من القرآن – هي سورة العصر – لا تزيد عن ثلاث آيات قد أدت إلى سعادة شرذمة من أصحاب الصفة ، فاستطاع أفرادها أن يحولوا بطحاء مكة التي كانت محطا للشرك ودارا للأصنام إلى بيت للتوحيد ، ومصلى للعبادة ... فوا لهفتاه أن هذا الكتاب السماوي المقدس المنزل من قبل الذات الإلهية ، والذي هو ذخيرة لكل السعادات الإنسانية قد انحط قدره ، وصار أقل في الأنظار من ديوان كليات سعدي وحافظ الشيرازيين ، وعمر بن الفارض ، والمثنوي لجلال الدين الرومي ، وصارت العناية به أقل من العناية بها ، فلم يستفيدوا من مواعظه وآدابه وحكمه ، رغم أن الأفواه والعيون تتفتح عجبا عند سماع أبيات من الشعر ، في الوقت الذي لا يأبه فيه إنسان بالقرآن عند تلاوته ، ولا يحاول تدبر معانيه .

أي وحقك .. سبحانك اللهم !.. إنك القائل وقولك الحق ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ ... لقد نسيناك ، وحرمت مرآة قلوبنا من انعكاسات معرفة حقيقتك .. سبحانك اللهم لقد قلت وقولك الحق : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ وقد حولنا وجوهنا عن طريق طاعتك ، فاستبدلت عزتنا وسعادتنا ذلا وهوانا .

فعليكم بذكر الله الأعظم ، وبرهانه الأقوم ، فإن نوره المشرق هو الذي به تخرج الهواجس ويتخلص من عتمة الوساوس ، وهو مصباح النجاة ، من اهتدى به نجا ومن تخلف عنه هلك ، وهو صراط الله القويم من سلكه هدى ومن أهمله غوى . عليكم بالفوز مما انتثر من لآلئ مقالات صاحبه عليه السلام لقوله صلوات الله عليه قائله « إذا أراد الله بقوم سوءا أقل منهم العمل وكثر فيهم الجدل » وقوله عليه السلام : ثلاث[1] لا يقل قلب امرئ مسلم : « إخلاص العمل فيه ، والنصيحة لأمراء المسلمين ، ولزوم جماعتهم » . المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يسعى

---

(١) هكذا في الأصل .

بذمتهم من والاهم ، وهم يد على من سواهم . وقوله عليه السلام : « لا يزال الأمر في أمتي مالم يتخلقوا بأخلاق الفرس » . وأشباه هذه الغرر الزاهرة التي تضمن واحدة منها سعادة الأمم كلها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وحينما نزل السيد من فوق المنبر وجد أن ثلث أعضاء الجلسة قد أغشي عليهم من فرط التأثر ، ووجد الباقين على وشك أن يفقدوا رشدهم فبكى السيد الكريم ، وأخذ يردد قوله : أي وحقك اللهم نسيناك فأنسيتنا أنفسنا ويظل يردد هذا القول حتى سقط وفقد صوابه ، وهكذا ظل الحاضرون ثلاث ساعات بين بكاء وأنين وإغماء .

ثم تقدم حسن عطا بك صهر خديوي مصر إلى السيد ورش على وجهه ماء معطرا ، فأفاق واختتم كلامه بقوله : « يجب على كل مسلم يبغي نجاة الإسلام والمسلمين أن يعمل بأحكام القرآن ويطبقها تطبيقا دقيقا ، وأن يقتدي بأسلافه من أهل الصدر الأول من المسلمين ، وأن يجعل دأبه خلوص النية ، وصفاء الباطن ، وخدمة المجتمع والابتعاد عن البخل والحسد والطمع ، وأن يلتزم بساطة العيش ، والعمل بالواجبات ، واجتناب المحرمات . فهذه هي الوسيلة الناضجة التي اتبعها أسلافنا فنجوا .

وقد تحمس الناس ، وكان أول عمل عملوه أنهم باعوا ما يملكون من أثاث وفرش ومن وسائل الركوب والترف ، وتبرعوا بثمنها لصندوق الحزب الوطني لينفق منها على المعوزين والمحتاجين والعجزة ، وفي سبيل إصلاح الأمة الإسلامية .

كما تعهد كل عضو من أعضاء الحزب أن يطيع الله وأن يطبق ما جاء في القرآن ، وأن يتلو حزبا منه كل يوم على الأقل ، وأن يعمل فيه فكره بتدبر وإمعان ، وأن يسير على الأسس الآتية .

١ – أن يؤدي الفرائض والنوافل ، وأن يلزم صلاة الجماعة .

٢ – أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

٣ – أن يدعو إلى الإسلام .

٤ – ألا يجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن .

٥ – أن يحسن إلى الفقراء .

٦ – أن يسعف المحتاجين ويعينهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

٧ – أن يصل الرحم .

٨ – أن يعود المرضى .

٩ – أن يتفقد أحوال أصحابه الغائبين .

١٠ – أن يرحب بالقادمين .

١٢ – أن يرشد الجاهل وينبه الغافل .

١٣ – أن يخلص نفسه من الخصال الرديئة ولا سيما العجب والأنانية ، وحب الذات وما شابه ذلك .

١٤ – أن يعفو ويصفح عن أخطاء الآخرين .

١٥ – أن يكظم الغيظ .

١٦ – أن يتجنب اللهو واللغو .

١٧ – أن يحمل كل عضو من أعضاء الحزب دفترا يسجل فيه المواد الستة عشرة الآتية .

(أ) الإحسان إلى الفقير .

(ب) الاستفسار عن الغريب .

(جـ) تحية القادم .

(د) تفقد أمور الغائب .

(هـ) الأمر بالمعروف .

(و) عيادة المريض .

(ز) صلة الرحم .

(ح) إرشاد الجاهل .

(ط) تنبيه الغافل .

(ي) مناقشة أهل الكتاب بالحسنى .

(ك) التوبة عن الفسق .

(ل) إزالة الرذيلة .

(م) العفو عن الخطأ .

(ن) كظم الغيظ .

(س) هداية الكافر إلى الإسلام .

(ع) أداء الحـق .

على أن يسجل كل منها في الدفتر على حسب هذا التسلسل وأن يأخذ كل إنسان نفسه بالعمل بها ، ثم يسجل الجميع هذا في سجل عام يضم جميع أعمال رجال الحزب الوطني حتى يعرف محصول الحزب حينما يعقد مؤتمره العام .

وقد قام أعضاء الحزب بتنفيذ هذه التعاليم ثم أحصوا ما حصلوا عليه من نتائج فوجدوه كالآتي .

١ – تسعون ألف تومان إيراني[١] جمعت من التبرعات النقدية للأعضاء .

٢ – بلغ عدد المرضى الذين عادهم أعضاء الحزب ألفا وخمسمائة مريض .

٣ – بلغ عدد الغائبين الذين تفقدوهم خمسمائة غريب .

٤ – عدد الحاجات التي قضوها اثني عشر ألف حاجة .

٥ – بلغ عدد الذين تابوا من شاربي الخمر وتاركي الصلاة خمسة وعشرين ألفا .

٦ – ترك جميع من كانوا في الإدارات الإنجليزية أعمالهم ، وانضموا إلى المجاهدين من رجال الحزب الوطني .

٧ – بلغ عدد الأكابر الذين تنازلوا عن ثرواتهم للحزب الوطني ، وتركوا حياة الترف خمسمائة .

---

(١) أي ما يساوي ١٨٫٠٠٠ جنية مصري في ذلك الوقت .

٨ – بلغ عدد من عوضوهم من التجار المفلسين ٧٥ شخصا .

٩ – بلغ عدد من مدوهم بالمعونة من أبناء السبيل ٢٠٦ شخص .

١٠ – بلغ عدد من اعتنق الإسلام من النصارى واليهود ١٢٠ شخصا .

١١ – بلغت مجالس الدعوة للإسلام ٤٤ مجلسا .

١٢ – بلغ عدد الحلول العقلية والاجتماعية التي أعطيت لمن طلبها ١٢٠ حلا .

وأدرك اللورد كرومر المستشار المالي البريطاني أن نفوذ بريطانيا آخذ في التقلص بدرجة عجيبة ، وأن تجارة الإنجليز كسدت كسادا شنيعا ، ورأى المبشرون في القارة الأفريقية أن ما عمله الحزب الوطني المصري يبلغ أضعاف ما فعلوه هم في سنوات عديدة ، وأصيب الموظفون الإنجليز بكثير من الفزع لأنهم رأوا أن المصريين لا يريدون التعاون معهم مما أصاب العمل بعقم شديد ، كما لاحظ أصحاب الشركات التجارية الإنجليزية ذلك وأن المصريين يعدونهم أعداء للإسلام والقرآن ، ولا يرغبون في التعاون معهم مما أصاب تجارتهم بكساد عجيب .

فكتب اللورد كرومر في تقريره إلى حكومته أن الحزب الوطني الذي يمسك بزمامه جمال الدين الأسد آبادي لو ظل يواصل نشاطه بهذه الطريقة ، فإنه سوف يقضي على التجارة الإنجليزية في مصر وإفريقية وآسيا كما يقضي على النفوذ الإنجليزي قضاء مبرما ، وبين أن وجود الحزب الوطني أشد عائق يقف في طريق هذه السياسة ، وأنه يجب القضاء على هذا الحزب قضاء مبرما .

وكتب في تقرير آخر يقول : إن الحزب الوطني هو أوضح مظهرلنهضة العرب منذ ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، وهو يبرهن حقا على كيفية سيطرة العرب على ثلث المعمورة في أقل من ربع قرن .

وقال أعضاء المجمع الكنسي : لم يدر بخلد شخص شئ أعجب من أن سبعمائة مليون من النصارى المثقفين الأقوياء المجهزين بكل ما يلزم الإنسان في حياته يتقهقرون ويتراجعون أمام أربعين شخصا يقودهم درويش إيراني .

وكتب أحد الأطباء في مستشفى بور سعيد – وكان إيرلندي الجنسية – في كتابه فلسفة المجتمعات يقول .

« كنت قد سمعت أن الأشياء يمكن أن تتضاعف إلى مئات الأضعاف ، فإذا ضوعف مثقال من القمح حسب قواعد التضعيف الموجودة في خانات الشطرنج ، فانها تحتاج إلى ثلاثة آلاف مخزن ، كما تحتاج في حملها إلى ٣٦٠ ألف بعير ، أو أن المن التبريزي إذا ضوعف حسب القاعدة الشطرنجية المذكورة ، فإن الناتج يكون ٧٢٧٫٠٥٩٫٠٨٩ خروار[1] وهو يساوي مجموع محصول القمح في العالم كله ، ويحتاج في حمله إلى جميع الطرق الحديدية وسفن العالم كلها .

نعم قد سمعنا عن هذه القاعدة التصاعدية ولكننا لم نجد أكثر من هذه النسبة التصاعدية التي نتجت في مصر ، فإن رجلا إيرانيا جاء إليها ثم انضم إليه واحد هو الشيخ محمد عبده ، ثم استطاع أن يكون حزبا بلغ عدده في خلال تسعة أشهر ٢٠٫١٨٠ عضوا ، وأصبح يملك رأس مال كبيرا في المصارف ، وأصاب المصالح الأوروبية بأضرار عجيبة ، ولو ظل هذا الحزب يتوسع بهذه الطريقة فإنه سيشمل جميع سكان العالم بناء على هذه النسبة التصاعدية » .

وكتب رئيس شركة انجليزية إلى أحد الصيارفة في لندن يقول له .

« أخي العزيز ! إن تغلب السياسة الأوروبية اليوم في مصر بهذه الصورة ستغلب غدا في العالم كله ، فقد تقهقرت أمام جماعة لا يملكون إلا بساطة العيش والمثابرة في العمل ، وحب النوع » .

وكتب أحد الضباط البريطانيين إلى قرينته يقول .

زوجتي العزيزة : إن المجتمع الإسلامي تسوده نهضة وثابة تجعل الإنسان يعتقد أن الدول الأوروبية يجب أن تنفض يدها مما تحت أيديها من المستعمرات ، ويجب على الشعب البريطاني أن يجد له مأوى في مناطق القطب الشمالية أو الجنوبية » .

---

(١) وزن إيراني يساوي سدس طن .

وكان لهذه الأقوال جميعا أثر في نفوس أفراد الشعب البريطاني فأيقن الشعب أن بقاء الحزب الوطني فيه قضاء علهيم ، فسارع بتنبيه حكومته إلى ضرورة القضاء على الحزب الوطني المصري ، والتنكيل برئيسه قبل أن يستفحل شره ، فتعجز سياسة بسمارك الألماني وعلمه ، كما تعجز سياسة غلادستون وتدبير جراي والمدافع والقذائف الجوية والغواصات عن القضاء عليه ، لأن الخطة البديعة التي رسمها الحزب الوطني كانت مؤيدة من الله ، وقدرة الله لا تصل إليها قوة في الفلك ، ولا تدانيها مهارة الساسة والمهندسين والمخترعين .

ولذلك جن جنون الإنجليز فنكلوا بأعضاء الحزب الوطني ، ونفوا جمال الدين إلى أوروبا ، كما نفوا محمد عبده الذي كان مفتيا ثلاث سنوات ، وألقوا القبض على كثير من أعضاء الحزب الوطني ، ووظفوا بعضهم في دواوين الحكومة بمرتبات ضخمة ، وقضى الحزب الوطني نحبه وكان عمره لايزيد على تسعة أشهر وبضعة أيام ، وأخذ الأوروبيون يتنبهون بعد ذلك حتى لا تقوم في البلاد الإسلامية نهضات كهذه .

هذا مجمل ما جاء في « كَفتار خوش يارقلي » الذي كان من تلاميذ مدرسة السيد جمال الدين وأتباعه .

أما الأمر الثاني الذي اتخذ سببا لإبعاد السيد جمال الدين من مصر ، فهو أنه ظل طوال المدة التي قضاها يقوم بتعليم المسلمين وإرشادهم ، مما جعل العلماء الرجعيين ينقمون عليه ، لأنهم كانوا يستغلون جهل العامة وسذاجتهم في منفعتهم الشخصية ، فثاروا عليه لقيامه بتدريس فلسفة ابن سينا ، وإحضاره الكرة الأرضية إلى المسجد ، فألبوا عليه العامة . وكان الإنجليز ينتهزون الفرصة للتخلص منه بعد قضائهم على الثورة العرابية ، فانتهزوا فرصة غضب العامة ونفوه إلى الخارج ، فخرج من مصر هو وخادمه أبو تراب بصورة لا تتفق مع المبادئ الإنسانية وكان ذلك في سنة ١٢٩٦ هجرية .

* * *

٨ - سفر السيد إلى الهند وذهابه إلى لندن وباريس

توجه السيد إلى الهند بعد خروجه من مصر ، واختار الإقامة في حيدر آباد الدكن بغية العمل لاتحاد المسلمين وألف هناك بطلب محمد واصل مدرس الرياضة بمدرسة الأعزة في ١٩ محرم ١٢٩٨ « رسالة نيجرية » باللغة الفارسية ردا على الدهرية ، وهي الرسالة التي طبعت في بمباي ، كما ألف تاريخ الأفغان باللغة العربية . وفى سنة ١٢٩٩ قبل احتلال الانجليز لمصر استقدمت حكومة الهند السيد من حيدر آباد الدكن إلى كلكتا ، وأوقفته هناك حتى نهاية الحملة على مصر ، فاتصل ثمة بالمرحوم سيرسالا رجنك وزير حيدر آباد وسير سيد أحمد خان ، ونظراً لقضية مصر واستياء الانجليز . عزم على السفر من الهند إلى أمريكا عن طريق لندن ، ووصل إلى إنجلترا في حدود سنة ١٣٠٠ ، وبعد أيام قليلة سافر إلى باريس واستضافه السياسي والكاتب الإنجليزي المعروف ولفريد بلنت في منزلة بباريس ، فانسجم مع النفر الهاربين من مصر ، وحيث إن ولفريد كان ينوي السفر إلى الهند كتب السيد إلى مريديه بناء على طلب ولفريد نفسه يوصي به . وكان لهذه التوصية - بقول ولفريد نفسه - أثر مفيد جدا ، ويقال إن السيد أقام ثلاث سنوات فى باريس يعمل لخدمة العالم الإسلامى ، وقد أسس في عام ١٣٠١ جريدة « العروة الوثقى » لمقاومة سياسة الإنجليز والأوروبيين واستخلاص العالم الإسلامي من نير الذل والاستعمار وكان رئيس تحريرها الشيخ محمد عبده ، وكانت هذه الجريدة ترسل وتوزع مجانا إلى كل جهات العالم الإسلامي . وقد صدر العدد الأول من هذه الجريدة في ١٥ جمادى الثاني ١٣٠١ هـ . وقد أحدثت جريدة العروة الوثقى - التي كانت بمثابة صور إسرافيل - ضجة هائلة في كل الأوساط الإسلامية ، ونفخت روح النهضة في أجساد الدول الإسلامية ، فاضطربت الدول الأوروبية الاستعمارية وأصابها ذعر شديد خوفا من قيام البلاد الإسلامية المستعمرة عليها . فقلقت من اتساع نفوذ هذه الجريدة وأخذوا يعملون لوقفها وتعطيلها ، وعدم وصولها إلى المستعمرات الإنجليزية بكل وسيلة ، الأمر

الذي أيدته فرنسا من جهتها ، حتى آذنت شمس هذه الجريدة بالغروب ، وكان المحل الذي يعمل فيه السيد مع زميله الشيخ محمد عبده لتحرير الجريدة المذكورة في زقاق حارة سيزومارتل .

وكانت الصحف الفرنسية تنشر بعض المقالات بقلم السيد عن سياسة الشرق ، كانت أغلب الجرائد الإنجليزية تقتطف نبذا منها ، خصوصا في الوقت الذي كان السيد فيه مقيما في باريس ، وكانت مباحثاته مع العالم الفرنسي المشهور « ارنست رنان » حول العلم والإسلام من الأهمية بمكان . وفي ذلك الوقت كانت مسألة المهدي في السودان تشغل بال الإنجليز كثيرا ، وكان السيد على اتصال بالمهدي ، فاتجهت نية الانجليز إلى أن يكون السيد واسطة للصلح بينهم وبين المهدي ، ويبدو أن غلادستون رئيس الوزارة الإنجليزية إذ ذاك وافق على هذه الفكرة ، غير أن وزارة الخارجية الإنجليزية رفضت هذا الرأي ، وبعد استقالة غلادستون من الوزارة واختيار تشرشل وزيرا للهند في الوزارة الجديدة ، دارت المباحثات من جديد بشأن ايجاد اتحاد بين العالم الإسلامي والإنجليز ، ووصل السيد إلى لندن في العاشر من شوال من تلك السنة ، وأقام في منزل مستر بلنت المذكور ، وظل في ضيافته أكثر من ثلاثة شهور ، وتباحث مع تشرشل وسير دروموندولف ، وفي شهر ذي القعدة من السنة المذكورة تقرر أن يسافر السيد مع ولف المذكور إلى إسلامبول ، وكان ولف قد تعين ممثلا لبريطانيا في مصر ، وكان يرغب في أن يتوجه أولا إلى إسلامبول للاتفاق على رأي مع السلطان العثماني بخصوص مصر ، وكان من ضمن ذلك أن يعد ولف بجلاء القوات البريطانية عن مصر ، فلهذا رأى أن وجود السيد معه سيفيده ، نظرا لنفوذه لدى رجال الدولة العثمانية المتحمسين للاتحاد الإسلامي ، ولكنه رغم هذا التصميم سافر أخيرا بمفرده إلى إسلامبول ، فاغتاظ السيد جدا من هذا التصرف ، فارتحل في حدود سنة ١٣٠٣ هـ ، من باريس إلى بلاد الشرق ، عازما على الذهاب إلى نجد وقطيف واليمن ، لينشئ هنالك خلافة إسلامية عصرية ، ويعد الوسائل لإيجاد اتحاد بين المسلمين عامة وإيران وتركيا وأفغانستان خاصة .

* * *

٩ - مجيئ السيد إلى طهران بدعوة من ناصر الدين شاه

كان السبب في مجيئه إلى إيران هو أن ناصر الدين شاه أثناء سفره إلى أوربا ، سمع كثيرا عن السيد جمال الدين وعن اشتهاره وبعد صيته ونفوذ كلمته ، فرأى أن دعوته تكون مدعاة لفخر الإيرانيين ومباهاتهم في الأوساط الأوربية .

ولكنه ظن أن السيد أفغاني ، ولم يعرف إنه إيراني ، بيد أن الميرزا حسن خان صنيع الدولة برهن للشاه أن السيد إيراني أسد آبادي ، ومال الشاه بقلبه لمقابلة السيد وأمر بدعوته إلى إيران من أي بلد يحل فيه الآن ، وفي الوقت الذي كان السيد قد حزم حقائبه وسار عدة مراحل بغية السفر إلى نجد والقطيف دعاه صنيع الدولة للسفر إلى إيران ، فتقبل السيد هذه الدعوة وتوجه شطر إيران ، عن طريق بلاد العرب ووصل إلى ميناء بوشهر في ١٦ شعبان ١٣٠٣ ، وحل ضيفا في منزل الحاج أحمد خان سرتيب ، فقضى هناك عدة شهور يشتغل بتهذيب الناس وإرشادهم إلى طريق الإسلام والحرية ، واستفاد من السيد الجليل رجال من قبيل : فرصت شيرازى وميرزا نصر الله الذي لقب بعد ذلك بملك المتكلمين ، وفي شهر ذي القعدة ١٣٠٣ هـ ، سافر إلى طهران حسب دعوة ناصر الدين شاه فاتجه من بوشهر إلى أصفهان ، فأبرق ظل السلطان الحاكم العام في أصفهان بخبر وصول السيد إلى البلاط الملكي بطهران ، راجيا الإذن باستضافته عشرة أيام في أصفهان ، فنزل السيد هنالك في منزل أحد أصدقائه (لا أذكر اسمه) وكان يوصي ظل السلطان كل يوم بنشر العلم والثقافة وإقامة العدل والعمل على رقي البلاد ، وبعد عشرة أيام سافر من أصفهان إلى طهران ، فى ضيافة حاكم « يزدوكاشان » المدعو سهام السلطنة مصطفى خان ، وأرسل برفقته نفرا من ملازميه ليكونوا بخدمته إلى طهران ، وقدم السيد إلى طهران في ٢٢ ربيع الثاني ١٣٠٤ وأقام في منزل الحاج محمد حسن أمين الضرب الذي كان أحد أصدقائه .

ولما علم العبد الفقير كاتب هذه السطور (المرحوم الميرزا لطف الله خان الأسد آبادي ابن أخت السيد) بدعوته إلى إيران عن طريق أصفهان وشيراز ، عزمت على زيارته في تلك السنة ، وعلمت بوصوله إلى أصفهان ، فاستدعاني ظل السلطان واستفسر مني عن بعض المعلومات ، ثم سافرت من إصفهان بعد ستة أيام إلى طهران للتشرف بزيارته ، واتفق أن كان الشاه ناصر الدين قد استدعى ذلك الفيلسوف الأعظم للإسلام يوم قدومي إلى طهران ، فحظيت في عصر ذلك اليوم بزيارته وقبلت يده ، وكنت أستفيد من حضرته دائما حتى اليوم الذي سافر فيه إلى أوروبا . أما قصة ذلك السيد العظيم وقدومه إلى طهران فتتلخص فيما يأتي .



السيد جمال الدين في لباس العلماء الإيرانيين وهو الشخص الثالث من اليمين والواقف خلفه ابن أخته ميرزا لطف الله خان مؤلف هذا الكتاب

السيد جمال الدين في لباس العلماء الإيرانيين وهو الشخص الثالث من اليمين والواقف خلفه ابن أخته ميرزا لطف الله خان مؤلف هذا الكتاب

يقول ناصر الدين شاه عند مقابلته للسيد : إني مسرور بقبولك الدعوة وتجشمك متاعب السفر إلى إيران ، كما أني مسرور بلقائك ، وإني أعترف بشأنك بأي صورة تكون فيها ، كما أني أستطيع أن أفخر على الملوك بقيام فيلسوف مثلك في بلاد إيران ، استفادوا بنتيجة علمه وفضله وحكمته في البلاد الأجنبية الأخرى ، وأن علماء وفضلاء الأجانب يعترفون بفضلك وعلمك ومقامك ، وإني مطلع على تلك الخدمات التي قمت بها نحو الإسلام والمسلمين في مصر والهند وأفغانستان وتركيا والأقطار الأوروبية ، والعجب من أنك بمفردك تستطيع القيام بكل هذه الأعمال العظيمة ، ويؤسفني أن تستفيد الشعوب الأجنبية من ثمرات اعمالك ، ويبقى بنو وطنك محرومين منها ، فقل لنا ما الذي يجب أن نعمله لتعمير إيران ورقيها ، وما أنجع الوسائل التي نرقي بها إيران ؟! .

فأجاب السيد : استطيع أن أفخر بنفسي بأن أري عاهل إيران قد استيقظ من سباته العميق وأخذ يفكر في تعمير البلاد ورقيها ويثق بي . نعم إنني إيراني أسد آبادي ، وإن كافة العلوم بحمد الله مخزونة في صدري ، فلا تنظر إلى وحدتي وصغر جسمي ، فإني أستطيع أن أطمس جبل دماوند العظيم هذا بقبضة يدي الصغيرة ، فأينما كنت لا أبغي إلا حفظ الجامعة الإسلامية ورقي المسلمين واستقلال بلادهم ، فبقدر ما أشعر بالنوايا السلطانية الخيرية أبذل ما استطعت الجهد لمؤازرتها وتنفيذها . إن خراب إيران وذل وشقاء الإيرانيين التعساء تعود إلى الذات السلطانية نفسها » .

ودلل بالدلائل الواضحة على كل العيوب للشاه ومنها أن الشاه له ثمانون زوجة لكل منها كثير من الخدم ، وينفق على كمالياتهم ما يعادل نفقات المملكة ، وصفوة القول إنه عرض العيوب من جهة ، وطرق الإصلاح من جهة أخرى ولكن يجب ألا تكون الإصلاحات على هذه المبادئ التي يسيرون عليها ، أي بتغيير الصورة والظاهر وإبقاء المفاسد الجوهرية على حالها .

فأثرت كلمات السيد في ناصر الدين شاه أيما تأثير ، وتقبل مقترحات السيد كلها كما تعهد بالإصلاحات الإدارية ، ثم قابله صنيع الدولة للمرة الأولى مقدما له لقب « اعتماد السلطنة » وكلفه بقبول منصب رئاسة الوزراء ورئاسة دار

الشورى ولكنه رفض ذلك ، وقال : « إني لم أطلب ولن أطلب الرئاسة في الدنيا أبدا ولا أبغي ولم أكن أبغي غير تربية المسلمين ورقي الوطن ، ولا أقول إلا ما أراه لازما وجديرا ، فلينظر الشاه وعقلاء البلاد إلى ما اقترحته بنظرة صائبة دقيقة ، ثم يقروا كل ما يجدونه صالحا ويأمروا بتنفيذه . فوافق ناصر الدين شاه على ما قاله السيد ، وأمر أن يجتمع الوزراء والرؤساء والأعيان والتجار والوجوه في حضرة السيد ليتخذوا الترتيبات اللازمة لتنظيم مصالح الدولة ، ويدونوا قانونا خاصا بذلك ، ثم يجتمعوا كلهم بعد عدة جلسات لامتثال أوامر السيد .

وقد ذاع الحديث عن هذه الأمور في كل ناد ومحفل ، ولم يكن بين العام والخاص من أهل طهران سوى هذا الحديث ، وكان السيد بصراحته المعهودة وجرأته المعروفة يتكلم في كل مجمع ومجلس عن لزوم الإصلاحات ، والقيام في وجه الاستبداد دون خوف أو وجل ، وكان يرصع الكلمات الناصعة بلفظ الحرية والحضارة في كل مناسبة . وأقدم على إلقاء المحاضرات وإيراد العظات ونشر المقالات لدي العلماء والأعيان والأكابر والتجار حسب ما تقتضيه البيئة في طهران ، إلا أن تلك الكلمات النارية لم تؤثر في القلوب الصلدة إلا قليلا ، ثم إنه نظرا لتنغص عيش ناصر الدين شاه وخوفه مما يمكن أن تؤول إليه الحال والتبديل الكبير الشامل الذي تستلزمه الإصلاحات الإدارية ، ولوجود بعض الخونة من الوزراء الأنانيين ، ونفر من علماء السوء الماديين – ممن يستفيدون من جهل العوام دائما – من الذين صاروا يدا واحدة مع بعض الأيادي الأجنبية ، وقاموا يحركون ويغالطون ، وأرادوا هدم وطننا العزيز بدافع الحسد وحب الأثرة والأغراض الشخصية ، فرضوا بإطاعة الأجانب ، فبادروا بالخصومة وأخافوا ناصر الدين شاه بإلقاء التهم المغرضة ، خشية أن يستقر أساس الحرية والدستور والعدل في إيران وأن يقضى على شخصياتهم الخبيثة العاطلة . فاستطاع أولياء الأمور في الدولة وخاصة ميرزا علي أصغر خان الصدر الأعظم – الذي كان كلام السيد بالنسبة له كالسم الزعاف – أن يجعلوا الشاه الغر الغافل في وضع يندم فيه على ما قطعه من الوعود للسيد ، وأوغروا صدره عليه وتمادوا في ذلك إلى درجة أن أفهموا الشاه أنه لو مكث هذا الرجل أربعة أيام أخرى في طهران لأمكنه خلعك وجلوسه سلطانا على عرشك ، فبلغت وحشة الشاه بحيث أبلغ سرا الحاج أمين اضرب

المستضيف للسيد ، بقوله : لا أرى من المصلحة بقاء السيد جمال الدين في طهران لعدة أسباب . فقل له أن يرحل إلى خراسان ويمكث هنالك برهة حتى يحين الوقت المناسب لاستدعائه ، فأبلغ الحاج محمد حسن أوامر الشاه للسيد فأجاب قائلا : « الآن نحن في فصل الشتاء وحينما يطيب الطقس سوف أذهب إلى أية جهة أريد ، بعد انقضاء الشتاء واعتدال الجو » .

ثم إنه كتب هذه الرسالة المختصره إلى ناصر الدين شاه وقال بعد العنوان .

« كنت قد عزمت على السفر إلى نجد والقطيف فدعاني صنيع الدولة (اعتماد السلطنة) حسب الأوامر الملكية إلى دار الخلافة البهية ، فأتيت ممتثلا وقد نلت شرف المقابلة بحمد الله . والآن وأنا أنوي السفر إلى أوروبا أرى استئذان الشاه فرضا على نفسي ولا أبغي شيئا سوى استحصال الاذن ، ولا شك أني أرى من واجبي أينما وجدت أن أكون في خدمة مقاصد الشاه السامية ومساعدة أفكاره الخيرية ، التي تكون حافظة للدين وصيانة حوزة المسلمين ، اللهم أيد بآرائه الصائبة هذه الملة ، وسدد بعزائمه الثابتة أساس سلطنة هذه الأمة الغراء والسلام » .

جمال الدين الحسيني

الجواب : « جناب السيد جمال الدين إن غايتنا تحققت من لقائكم ، والآن وأنتم تنوون السفر إلى أوروبا أرى أن ذلك خير ، ولكي تتذكروا ذاتنا العظيمة دائما فقد أرسلت إليكم علبة ألماسية للسعوط ، ونحن أنفسنا لن ننساكم أبداً » .

فجاء ميرزا علي أصغر خان الذي كان حينذاك أمين السلطان بالخطاب وعلبة السعوط ، فضلا عن ألف تومان[1] وخاتم من الماس قدمها من ماله الخاص ، فلم يقبل ذلك الفدائي الأول للإسلام المبلغ ، وقدم الخاتم بمشهد من أمين السلطان إلى محمد حسين أقا ابن المرحوم الحاج محمد حسن أمين الضرب ، وأراد أن يرد العلبة فلم يستصوب البعض هذا . ثم منح العلبة بعد أيام .... .

* * *

---

(١) يساوي هذا المبلغ مائتي جنية مصري .

١٠ - سفر السيد إلى روسيا ومقابلته لناصر الدين شاه ودعوته للمرة الثانية إلى إيران

عزم السيد على السفر في التاسع من شهر شعبان المعظم من طهران إلى أوروبا ، ونزل ضيفا بمدينة ولادى بالقوقاز في منزل محمد علي خان الكاشاني ، فمكث هناك حتى قدم إليها أمين الضرب من إيران - فسافرا معا إلى موسكو حيث استضافهما نعمة الله الإصفهاني الذي اختير قنصلا لإيران هناك . ثم سافر أمين الضرب إلى باريس ، واتجه السيد إلى بطرسبرج « لينينجراد الحالية » ، واجتمع في موسكو بمدير جريدة موسكو المسيو كاتكوف ، وتباحث معه في أمر الاتحاد الإسلامي ضد بريطانيا ، ويروى أن كاتكوف نفسه هو الذي طلب مقابلة السيد إلا أن المنية عاجلت كاتكوف ، وسافر السيد بعدها إلى بطرسبرج حيث لبث عامين ، قضاهما في المباحثات مع مشاهير الساسة من الرجال ، وكانوا محتفين به للغاية . ثم سافر منها إلى النمسا ، واتفق أن قابله ناصر الدين شاه في فينا ، وأعجب بأخلاقه وسلوكه وعلمه ومقامه ، وأبدى لذلك سرورا وغبطة . وعرض عليه السفر إلى إيران للمرة الثانية ، ولكن السيد لم يوافق على هذه الدعوة ، وذكر الشاه بما حاكه الدساسون والمغرضون حوله في المرة السابقة . بيد أن الشاه أقنعه بقبول العرض ووعده بما يرضيه في هذه المرة . ثم أمر الشاه أحد حاشيته ، قائلا له : مد يد العهد وتصافح مع السيد من قبلي . ولكن ذلك السيد العظيم رفض المصافحة مع الرجل قائلا له : إن يد مثلك لا تليق أن تتصافح معي ، لأن يدي حرية بأن يصافحها الشاه ، ولا يحق ليد أن تعاهدني إلا يد السلطان نفسه .

فقدم ناصر الدين شاه يده بنفسه إلى السيد ، وأخذ بيد السيد وأعطاه عهدا أكيدا من كل ناحية ، ثم ألقى كل منهما كلمة فى لزوم مراعاة العهد وتوثيقه .

وكان ناصر الدين شاه يريد تسكين ثائرة الروس الذين كانوا قد ثاروا في تلك الأيام على أمين السلطان بسبب منحه امتياز المصرف الامبراطوري[1] والترخيص للسفن الإنجليزية بالعبور في نهر قارون ، وأراد أن يوفد أحد أفراد حاشيته إلى بطرسبرغ ، ولكن نظرا لخلو الاكياس المملوءة بالذهب والفضة والتي كان بحاجة إلى مثلها لنفقاته ولهوه ولعبه و ... و ... في تلك البلاد ، ولأن الوسائل التي كان يتوقعها لم تكن مهيأة إذ ذاك ، وأن أحدا من رجال حاشيته لم يوافق على قبول هذا الأمر ، فإن كل من كان يكلف بالقيام بالسفر كان يلتمس شتى المعاذير لعدم قبول ذلك . ثم استقر رأيهم على أن يوفدوا بعد العودة إلى طهران مبعوثا من قبلهم إلى بطرسبرغ ، فتقدم حينذاك ذلك العلامة الأوحد مدفوعا بحميته الإسلامية وقبل هذه المهمة ، واستعمل نفوذه الذي كان له في بطرسبرغ لبلوغ هذه الغاية التي كانت تناهض السياسة البريطانية وتعارضها .

وتعهد بالقيام بكل ذلك دون أن يطلب لنفسه درهما واحدا ، ورحل الشاه ناصر الدين صوب إيران والسيد جمال الدين إلى بطرسبرغ ، ثم عاد بعد مباحثاته مع دوكيرس رئيس وزراء روسيا وزميزيف مستشار وزارة الخارجية الروسية وايفناتيف ومدام نويكوف والجنرال ريختز والجنرال ايروتشف ، ناجحا مظفرا إلى طهران .

* * *

(١) يسمى الفارسية « بانك شاهنشاهي » .

١١ - اضطهاد السيد في طهران ، وإبعاده عن إيران ، وقدومه إلى البصرة

ومن حسن الحظ أن هذا الفقير كاتب هذه الأوراق كان إذ ذاك في طهران ، ينتظر قدوم السيد للتشرف به . فجاءت البشائر منبئة بمجيئه من موسكو إلى طهران . ثم وفد الشاه إلى طهران في تلك الأثناء ، وقد وصل السيد إليها بعد شهرين في سنة ١٣٠٧ ونزل في عمارة « ضراب خانه - دار ضرب المسكوكات » ومكث هنالك يومين أو ثلاثة .

وعند وصوله تشرفت بلقائه ، وأنا في كمال الشوق لزيارته ، وقبلت قدميه ، فأخذ يلاطفني ويربت على كتفي ويقبل وجهي ، وقد أطلعنا سيادته على المعاهدات وكتب الخطاب التالي إلى ناصر الدين شاه .

« أما بعد ، فإني وفيت بعهدي وأتممت ما علي من الأمور ، وهأنذا الآن أقيم في ضراب خانه ، فقبل أن أتشرف بزيارتكم أرى أنه من الواجب تذكير جلالتكم بأن المغرضين وأصحاب المطامع وذوي الشهوات من الخونة لا يدعونكم وشأنكم ، بل يبادرون بالنميمة والدسيسة ، وأعتقد أن جلالتكم سوف لا تقدمون على الضرب على أيديهم وإيقافهم عند حدهم ، ولن تطيقوا المحافظة على العهد ، فإذا كنتم حقا مصممين على مراعاة العهد جادين في إبقائه والعمل به ، فأصدروا أمرا حتى أحظى بشرف الحضور عندكم ، وإذا لم يكن كذلك فدعوني كي أرتحل فورا من هنا قبل أن يذاع نبأ وصولي ويعلم به الناس ، وقبل أن تتكرر المأساة السابقة ويشتهر جلالة الشاه بنقض العهد . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

« جمال الدين »

وهذا جواب ناصر الدين شاه على الخطاب المذكور .

لقد سررت بمجيئكم ، وإني أقدر خدماتكم ، ولي كل الثقة وحسن الرأي في إخلاصكم ووطنيتكم ، ونحن أيضاً باقون على العهد فكونوا فى اطمئنان وثقة من جميع الوجوه وتعالوا إلى المدينة ، وانزلوا في دار الصدر الأعظم الذي أعد لوفادتكم .

فكتب السيد – للمرة الثانية – إلى الشاه قائلا :

إني شاكر لكم البقاء على العهد ، بيد أني لا أرغب في النزول بدار الصدر الأعظم لأن لي في المدينة منازل عديدة ، وسوف أنزل بدار الحاج محمد حسن أمين الضرب الذي كنت فيه في المرة السابقة ، لأني أرغب في أن أكون هناك .

فأجاب ناصر الدين شاه بقوله .

« أما وقد رغبتم في النزول في دار الحاج محمد حسن . فليكن لكم ذلك » وقدم بعد ذلك طهران ، وحل بمنزل الحاج محمد حسن . جف القلم هنا ، وها هنا بيت القصيد ! . .

وبعد أن مكث عدة أشهر في طهران وأنار بخطاباته الأذهان المستعدة ، وأوقفهم على مطالب لم يكونوا قد سمعوها من قبل ، فسرعان ما انتشرت بذور الإخاء والوحدة الإسلامية ، وحب الحرية في القلوب ، وأخذت بعض الكلمات تتسرب شيئا فشيئا إلى الافواه بين العامة والسوقة ، وأخذ الناس يقولون إن السيد جمال الدين محق وصادق فيما يقول ، وإن الشاه رجل ظالم ، يساوم على شعبه ، مخربا للبلاد لا هم له سوى إرضاء شهواته ، والوزراء خونة لصوص همهم إرضاء الأجانب ، لا يميلون إلى تعمير البلاد وتقدم الشعب . أين بيت مال المسلمين . أين جيشنا ، أين تجارتنا ، أين ثروتنا ، أين أصلنا ، أين معارفنا ؟!.. فخاف رجال السراي مغبة الأمر ، وتأكدوا أنه لو بقي السيد شهرا آخر في طهران فقد تقوم الثورة وتنقلب أحوال الناس .

لكنهم من جهة أخرى رأوا أنهم إذا أرادوا إيذاء السيد واضطهاده ، فإنه يتحقق لدى الشعب أن الدولة دولة خائنة تؤذي وتضطهد من يريد الراحة والطمأنينة والرقي للبلاد ويدعو إلى وحدة الإسلام وإسعاد المسلمين .

فلذلك بلغت بهم القحة إلى درجة أنهم شهروا في وجه السيد راية التكفير ، وموهوا الحقيقة على الناس حتى أخذ الشيطان يعض أنامله حيرة من دسائسهم . والطريف أنهم حركوا زمر العامة ليتجمعوا هنا وهناك ويلغطوا فيما بينهم قائلين : ألا لعنة الله على البابية وأعداء الشاه .

ونتيجة لتلك الدسائس التي دبرها الهدامون للديانة النبوية والبلاد الإيرانية ، تجددت تلك المأساة السابقة ، بل زادها شدة الشاه الجبان المنخدع بأقوال المغرضين ، نظرا لعدم رغبته في تقدم المملكة وحسده للعلماء ، وإيقاعه الفتنة ما بين الوزراء والحاشية ، فكان يتخوف من كل من يراه مستعدا للخدمة ويعمل لإتلافه وإفنائه « والحق أن هذا الرجل رغم وجود ميرزا تقي خان ... كان هو السبب الوحيد المباشر لكل العيوب والمفاسد ، وهو الذي خرب البلاد فشتت العباد وأفقر الشعب » .

وقصارى القول إنه لم يتورع عن خلف الوعد ونكث العهد . فاتفق وتواطأ مع مخربي البلاد وهادمي الإسلام ، وأصغى إلى افتراءاتهم المغرضة ، لكنه تظاهر رياء بالقول بأن أكابر البلاد لا يرغبون في بقاء السيد في طهران ، فالأولى له أن يسافر لمدة وجيزة إلى خراسان أو قم ، فأجاب السيد بصراحة .

لماذا دعوني إلى إيران في المرة الثانية فقد كنت في الخارج فماذا دعاهم أن يعاهدوني ويحثوني على العودة إلى إيران .

والآن وأنا هنا أي ضرر لحق بالدولة أو بالأمة مني حتى يوجب خروجي من البلاد .

وإني منذ اليوم الذي صممت فيه على أن أخدم الوطن والعالم الإسلامي ، قد وضعت رأسي على كفي فلا أخشى أحدا أبداً . وما لم أدلل وأبرهن على خلف وعد الشاه ونقضه للعهود أمام العالم أجمع ، فإني لن أبرح الأرض ولو تعرضت حياتي للخطر المحقق ، إنني لست محكوما لأحد حتى يقال لي تعال فأحضر أو يقال اذهب فأذهب ، والمبلغ الذي عينوه لسفري له مستحقون كثيرون في إيران عامة وفي طهران خاصة .

* * *

١٢ - اضطهاد السيد وإبعاده من طهران ومجيئه إلى البصرة

وكان السيد يعلم حق العلم أنهم سيؤذونه في النهاية ، وأن بقاءه في منزل الحاج محمد حسن قد يسبب متاعب للحاج ولسائر أصحابه ، فلهذا السبب انتقل إلى مقام حضرة عبد العظيم الشريف ، وبقي سبعة أشهر في تلك البقعة المقدسة حيث كان أغلب أصحابه ومريدوه يزورونه جهارا وسرا ويستضيئون بنوره . وشيئا فشيئا ارتفعت ضجة من سكان طهران على أثر الخطب النارية التي كان يوردها السيد هنالك ، وانتهى الأمر إلى أن يوعز علي أصغر خان الصدر الأعظم بأمر من الشاه ناصر الدين إلى آقا بالا خان – الذي اغتيل أخيرا في مدينة رشت برصاصة الأحرار – بالقيام بإبعاد ونفيه خارج إيران .

وساعد مختار السلطنة حاكم بلدة عبدالعظيم الموكل إليه أمر إبعاد السيد ونفيه ، فاقتحم الجند عليه الدار وألقوا عمامته ، واقتادوه كجده العظيم من الزاوية المقدسة ، وساروا به من السوق حتى أخرجوه وساقوه إلى كرمانشاه عن طريق مدينة قم في برد الشتاء القارس ، وكانوا يغيرون حراسه في كل منزل ومرحلة خوفا من أن يتأثروا بأخلاقه الحميدة ، وملكاته الفاضلة ، ذلك لأن كل من كان يجالسه مرة أو مرتين كان يفتن بحبه وإخلاصه ويقع تحت تأثيره .

وكان حسين خان أمير أفخم شوريني قراكوزلو حاكم كرمانشاه إذ ذاك ، فأكرم وفادة السيد للغاية ، وقدم إليه مبلغا من المال ، لكن السيد اعتذر عن قبول المبلغ ، وكانت معه حوالة نقدية على أحد التجار فأخذها وأعطى مائة تومان[١] للحراس الذين كانوا برفقته ، والذين كلفوا بتسليمه إلى حاكم كرمانشاه ، إكراما لهم .

وقال لأمير أفخم إذا أردت رضاي فأزل هذه الشوكة من طريق المسلمين

(١) كان التومان يساوي عشرين قرشا في ذلك الوقت .

يعني الشقي (جوانمير) الذي قد عاث فسادا في قصر شيرين ، وقطع طريق زوار العتبات وتمادى في سلبهم ونهبهم وقتلهم . فرأى في المنام في تلك الليلة أن فارسا يكرر عليه قول السيد . فقويت عزيمة الأمير أفخم بذلك وسافر بعد أيام إلى قصر شيرين ، وألقى القبض على جوانمير وقتله ، ولو أن أمير أفخم صار موضعا لغضب الدولة بسبب إكرامه للسيد . ومما تجب الإشارة إليه هو أنهم عندما أرادوا إبعاد السيد من « عبدالعظيم »[٢] لم يكن في خدمته سوى معين التجار وميرزا رضا الكرماني المعروف .

أما معين التجار فقد اختفى خوفا ، وأما ميرزا محمد رضا فأخذ في الصراخ ، وهو ينادي وا شريعتاه ليثير أهالي طهران حتى يقدموا على تخليص السيد الذي كان وحيد زمانه وفريد دهره .

والخلاصة أن هؤلاء الأشرار لم يقوموا بنصرة ابن الرسول (أي السيد جمال الدين) . حدثت هذه الواقعة المؤلمة في شهر شعبان سنة ١٣٠٨ هجرية . وكنت أنا في خدمة السيد إذ ذاك بطهران ، وقد انتقم الله ممن آذى السيد بعد برهة وجيزة ، فاغتيل كل من مختار السلطنة وآقا بالاخان وميرزا علي أصغر خان الصدر أعظم واحدا بعد آخر وكان ذاك جزاء وفاقا .

* * *

(٢) اسم مزار من مزارات الشيعة بالقرب من طهران .

١٣ – سفر السيد عن طريق البصرة إلى لندن

فأبرق أصدقاؤه خبر الواقعة سرا إلى بغداد وسائر الولايات الأخرى ، ولم يدع الموظفون – حسب الأوامر – السيد يتشرف بزيارة العتبات ، وكان قد طلب إلى والي بغداد أن يوفد السيد فور وروده بغداد إلى البصرة فعمل كذلك .

ويفد السيد إلى البصرة ويقابل الحاج سيد على أكبر الشيرازي الذي كان من علماء إيران وقد أبعد منها ، ويكتب بواسطته رسالة عربية تحت عنوان « الحجة البالغة وحملة القرآن » بتاريخ سنة ١٣٠٨ هـ ، من البصرة . وقد خاطب بها المرحوم الحاج محمد حسن المجتهد الشيرازي وبقية العلماء والمجتهدين في كربلاء والنجف وسامرا ، وهي تتضمن حماية الإسلام ومحو الظلم ومقاطعة الأجانب . وطبع السيد هذه الرسالة بنفسه بعد ذلك في لندن .

وأبرقوا في هذه الأثناء إلى طهران بأن السيد جمال الدين قد غادر البصرة بغتة ولا يعرف عنه أي خبر . فأبرقت الحكومة الإيرانية إلى كل جهة بأن يقبضوا على السيد أينما وجد . لكن السيد الجليل اتجه شطر أوروبا ووصل لندن وألقى خطبا مؤثرة في مجالس الإنجليز ، يفصل فيها مظالم ناصر الدين شاه وبعض أفراد حاشيته فأثر فيهم . ومع أن السيد كان قوي البنية فإنه قد اعتل نتيجة لما قاساه من الأذى أثناء نفيه من إيران .

وكان يتذكر حتى آخر أيام حياته مأساة نفيه وما أنزلوا به من شتى الاضطهادات والاعتداءات الوحشية في غضون ذلك الشتاء القارس ، فترك ذلك في قلبه خاطرة مؤلمة .

واحتفوا بقدومه في لندن للغاية .. ذلك لأن الإنجليز فضلا عن أنهم كانوا قد أحاطوا علما بأعماله في إيران وأفغانستان ومصر والهند وأوروبا فإنهم كانوا يعرفون نواياه القلبية وغاياته المعنوية والروحية . فكانوا يؤمنون بنفوذ كلمته ،

فأحاطوه بتلك الحفاوة وذلك التكريم ليستطيعوا اجتذابه نحوهم . فبادر السفير الإيراني في لندن بتقديم مذكرة إلى الحكومة الإنجليزية تفيد أن السيد شخصية ثورية ، غير أن هذه المذكرة زادت حرمة السيد وإجلاله رغم ما كان يتوقعه السفير المذكور .

فلبث السيد في لندن مدة على هذه الحال ، واتصل به الميرزا ملكم خان سفير إيران السابق الذي كان قد أقيل من منصبه ، وأنزله في منزله مدة ، فأصدر في رجب سنة ١٣٠٩ هـ ، جريدة باسم « ضياء الخافقين » باللغتين العربية والإنجليزية نشر في عددها الثاني الرسالة التي كان قد كتبها إبان وجوده في البصرة إلى العلماء والمجتهدين ، ولكن الإنجليز عطلوا تلك الجريدة بتدابير عجيبة . فجاءه في غضون تلك الأحوال سفير تركيا في لندن يحمل خطابا من السلطان عبدالحميد يقول فيه : إننا مشتاقون لزيارتكم ، ويطلب السفر إلى الآستانة . فيستفسر السيد من السفير عن سبب هذه الدعوة ، ويجيبه السفير قائلا : إن عبدالحميد معتزم أن يؤسس بمعاونتكم ،و مساعدتكم الكريمة اتحادا بين الممالك الإسلامية ، وفضلا عن ذلك فإنه يرغب في الإفادة من آرائكم الرزينة في تدوين بعض القوانين التي هو بصددها . فيبحر السيد – طوعا أو كرها – من لندن شطر الآستانة ويصلها سنة ١٣١٠ هـ ، ويقيم بالباب العالى معززا محترما .

* * *

١٤ - وصول السيد إلى الآستانة للمرة الثانية بناء على دعوة السلطان عبدالحميد له ، ووفاته هناك

ونظرا لنفوذ السيد في الممالك الإسلامية رحب السلطان عبدالحميد بقدومه ، ورفع من منزلته السامية ، وبالغ في إعزازه وتوقيره وكان عشاء السيد وغذاؤه يعد كل يوم من المطبخ السلطاني والمائدة الملكية ، وقيل إنه قد تقرر له مرتب شهري يبلغ مائتي ليرة ، وأصبح من أقرب المقربين إلى السلطان ، وكان (مستر بلنت) الإنجليزي المعروف مقيما في الآستانة إبان ذلك وهو الذي يروي هذه الحكاية عن ضيافة سلطان تركيا للسيد في عيدي الفطر والأضحى .

وكانت صلات السيد بعبد الحميد قوية جدا في بادئ الأمر بحيث كان كل منهما يستظهر بصاحبه .

وفى إحدى اجتماعاتهما الخاصة التى جرت بينهما فقط ، خاطب السلطان السيد بقوله : إن ملتمسي من حضرتك أن تبذل غاية الجهد ، حتى نستطيع — بتوحيد آرائنا ومساعدة حضرتكم — أن ننشئ وتؤسس اتحادا واتفاقا قويا ثابت الأركان ، لايقبل الخلل بين الشعوب الإسلامية ، حتى يمكن بفضل تلك الوحدة أن تمد أمم الجامعة الإسلامية يد المودة والإخاء ، بعضها إلى بعض ، وتنهض بالصناعة والعلوم في ظل الاستقلال القومي ، والاتحاد الإسلامى ، ولكي يحصل لها التوفيق بعون الله تعالى لاسترجاع تلك القوة العظيمة السابقة ، ولا تتأخر عن ركب السعادة والرقي .

وأراد السيد جمال الدين الذي كان من بدء حياته السياسية يعد هذا المقصود غرضه الأسمى والغاية القصوى لأمانيه الإصلاحية ، أن يواصل جهاده لتحقيق هذا الغرض ، فتقبل هذا الطلب بخالص السرور وغاية الترحيب ، وتعهد للخليفة أن يبذل قصارى جهده ، ويضحي بالروح في سبيل تحقيق هذا الهدف العظيم .

ومنذ تلك الساعة نهض بعزم حديدي وإرادة قوية كالجبل الراسخ لتنفيذ هذه المهمة العظمى .

وفضلا عما كان يمتاز به السيد من مراتب علمية وأدبية ، وفضائل اخلاقية وورع نفسي وسائر المزايا الفاضلة ، فإنه كان يمتاز بسجية الشجاعة إلى درجة تفوق كل سماته الشخصية العالية ، فلم يعرف الخوف ولا الرهبة سبيلا إلى قلبه أثناء مفاوضاته أو محادثاته .

وكان دائما يصرح بآرائه وأفكاره في غير تهيب ولا وجل لما جبل عليه من شجاعة واعتزاز بالنفس .

هذا ، فضلا عن ما كان له من رغبة ملحة في رقي وطنه وإسعاد مواطنيه .

فكانت مساعيه ومجهوداته تبذل لإنهاض العالم الإسلامي ورقيه .

وكان يكرر لمريديه وأتباعه القول بأنه يجب علينا باسم العظمة الإسلامية ، والشريعة المحمدية ، أن نحد من سيطرة الأوروبين وتطاولهم بالنسبة لأية دولة إسلامية في آسيا أو في أفريقيا أو غيرهما ، بحيث تصبح الممالك الإسلامية بعيدة عن مظالم السياسة الأوروبية واستبدادها .

وقد قضى شطرا كبيرا من عمره في الحل والترحال بالبلاد الإسلامية لترويج هذه الغاية وبثها في نفوس المسلمين . ولم يكف لحظة عن إشاعة هذا الغرض الأسمى في كل مكان . ومن أجل هذا الغرض – أي ارساء مباني الوحدة الإسلامية – حضر إلى الآستانة من لندن بناء على دعوة السلطان إياه .

وبعد عدة جلسات خاصة دارت بين السيد والسلطان في الآستانة بشأن الوحدة الإسلامية ، بادر السيد بتقسيم العمل لتحقيق هذه الفكرة الخطيرة إلى دورين .

(١) أن تكون كل المراسلات والمخابرات الدولية والرسمية مباشرة سواء أكانت مع ناصر الدين شاه أم مع خديوي مصر أم مع سلطان مراكش أم مع سائر الأمراء والإمارات الأخرى ، وأن تكون مع السلطان عبدالحميد ووزرائه وسفرائه ورجال حاشيته بأي طريقة يختارها .

(٢) وتعهد السيد بالشطر الأكثر أهمية وهو المختص بعامة الناس من الشعوب الإسلامية بأن يقوم بمكاتبة علماء المسلمين وزعمائهم سواء أكانوا من أهل الشيعة أم من أهل السنة أم من غيرهم ، وأن يبسط القضية لكافة رؤساء الأمة الإسلامية وقوادها بحيث تحظى بموافقتهم وتأييدهم .

ومما تم القول بشأنه مع عبد الحميد أن الدولة الإيرانية تفوق مصر والأفغان ومراكش وغيرها ، نظرا لتمتعها بالاستقلال التام الناجز ، فضلا عن أن الخلاف بين السنة والشيعة يرجع القسم الأعظم منه إلى أن إيران دولة شيعية ، فيجب أن يتعهد السلطان عبدالحميد بأن ينتزع من الدولة العثمانية العتبات المقدسة وجزءا آخر من النهرين (أي العراق) مما له صلة بالمشاهد المشرفة التي تزورُها الشيعة ويضمها إلى إيران إزاء ما تبذله حكومة وشعبا في تأييد الوحدة الإسلامية ، كما قرر السيد أن تنتخب حكومة كل بلد إسلامي ممثلا ، ويختار كل شعب إسلامي شخصا من أكبر علمائه ليجتمعوا في الآستانة في مؤتمر عال باسم « المؤتمر الإسلامى الأعلى » ، وأن يكون له الرأي القاطع في حل المسائل والقضايا المهمة الخاصة بكل قطر إسلامي . وأن تعرف كل أمة ودولة إسلامية أنها مكلفة باحترام وإقرار ما يشير به هذا المؤتمر أو يدعو إليه .

ثم تبين بعد ذلك أن غاية السلطان عبدالحميد هي أن يفرض نفسه زعيما لهذا المؤتمر ، وأن يقرن الخلافة العامة بالخلافة الخاصة في آن واحد . وكانت هذه المسألة إحدى المسائل التي ولدت الخلاف بعد ذلك بين السيد والسلطان عبدالحميد .

وكان غرض السيد من تشكيل هذا المؤتمر الإسلامي هو إيجاد تعاون بين المسلمين لنهضتهم وتكاملهم ، واستعادة السلطان الإسلامي وعظمته .

فإن اعتدت دولة أوروبية على مملكة إسلامية ، يصدر هذا المؤتمر الإسلامي الأعلى أمرا بالجهاد المقدس لكافة المسلمين في العالم ، فينهضون لمحاربة تلك الدولة بقوة السلاح ، فضلا عن وقف العلاقات التجارية والاقتصادية معها .

وبعد أن تم الاتفاق بين السيد والسلطان على المواضيع الآنفة الذكر ، أفضى السيد بهذا الحديث إلى خواص رفاقه وأتباعه الذين كانوا جميعا من فحول الأدباء

والعلماء ومشاهير الأحرار من الشيعة ، وكان فيضي أفندي العالم الإيراني ، ورضا باشا الشيعي ، والسيد برهان الدين البلخي ، والشيخ الرئيس أبوالحسن ميرزا ، ونواب حسين الهندي ، والشيخ أحمد روحي ، والميزرا آقا خان الكرماني خبير الملك ، وعبدالكريم بك ، وحمدي بك ، والجواهر زادات الأصفهاني ، والشيخ محمود أفضل الملك روحي ، ونفر من الأحرار من مريديه في زمرة من حضروا هذا المجلس .

وقد ألقى السيد خطابا مؤثرا في هذا المعنى وأطلع الحاضرين على حقيقة أهدافه قائلا .

« الديانة الإسلامية في الوقت الحاضر هي بمثابة سفينة ربانها محمد بن عبدالله ﷺ ، وركاب تلك السفينة المقدسة كافة المسلمين خاصتهم وعامتهم .

وفي الوقت الحاضر أشرفت هذه السفينة على الغرق في بحر السياسة العالمية ، كما تعرضت لخطر الطوفان .

ولعل الحوادث الدبلوماسية ، والدسائس الدولية ، تؤدي إلى إغراق هذه السفينة وتحطيمها ، فما حيلة ركابها وهي مشرفة على الغرق وما هو تدبيرهم ؟ فهل يجب على ركاب هذه السفينة أن يبذلوا جهدهم لحراستها وإنقاذها من الطوفان والغرق ؟ أم يظلوا مختلفين فيما بينهم متبعين أغراضهم الشخصية وأهواءهم الذاتية ؟ » .

فأجاب الحاضرون : إنه يجب على كل مسلم وطني أن يبذل كل ما في وسعه لحفظ بيضة الإسلام ونجاة هذه السفينة المقدسة ، وتعهدوا جميعا أن يبذلوا كل أنواع المساعدة ، وألا يضنوا بالتضحية في سبيل تحقيق آراء السيد السامية ، وأخيرا توحدت كلمة السيد وزملائه في القيام للعمل من أجل الوحدة الإسلامية ، وكانت أفكار السيد العالية – في كل مكان – وسيلة لتهذيب المسلمين ورقيهم ، ولهذا نثر بذور الحرية في النفوس الزكية في الآستانة كما نثرها في كل مكان ، وقرر السيد الجليل أن يبسط إلى أكابر الحكام من الشيعة وزعمائهم المبادئ الإساسية مؤيدة بالدلائل القطعية والوثائق القوية في رسائل موحدة المعنى .

وفضلا عن ذلك فإنه أوعز إلى كل منهم أن يكتبوا إلى كل من يعرفونه هم أنفسهم بشأن تلك الأمور وأن يحثوهم على العمل في سبيلها ، ولهذا حرروا مايقرب من خمسمائة رسالة بألسنة مختلفة من فارسية وعربية وهندية وتركية ، وأرسلوها إلى العتبات المقدسة في العراق وإلى كافة البلاد ، فأرسلت إلى إيران والهند ومصر والجزائر وطرابلس وبلاد الشام والحجاز وسائر الأقاليم الإسلامية ، وعزم السيد على أن يوفد ستة أشخاص من رفقائه وأتباعه الذين يتكلمون اللغات الشرقية إلى الأقطار المعنية بالأمر لبث الدعوة فيها .

ولم تمض مدة حتى وصلت الردود الطيبة على كل تلك الرسائل من قبل كافة الطبقات في المجتمع الإسلامي ، سواء أكانوا من العلماء أم من غيرهم ، وتقبلوا الدعوة بقبول حسن وسرور بالغ ، وقد أرسل بعضهم هدايا وتحفا تاريخية بواسطة فيلسوف الإسلام الأعظم السيد جمال الدين إلى السلطان عبدالحميد ، وكان بعضهم قد ألحق برسالته أدعية وتعويذات للسلطان العثماني ، فأمر السيد بأن تترجم كل تلك المراسلات من الألسنة المختلفة إلى اللغة التركية ، وأن يرفق أصل كل منها بترجمته ، وحملها إلى حضرة السلطان عبدالحميد ، هذا وقد سر السيد سرورا بالغا بنجاحه في خدمة الإسلام .

وقرأ السلطان عبدالحميد كل تلك الرسائل في دقة ، وازداد سروره ، فاحتضن السيد دون تكلف ، وقبل محياه مرات عديدة ، وهنأه على ما حصل من التوفيق على يديه ، واستولت عليه الحيرة والعجب من نفوذ كلمة السيد ونفاذ أمره في هذا الأمر الخطير ، فقال السيد : الآن وقد وفقنا بعون الله ومساعدة حضرتكم في الحصول على الشطر الأعظم من مقصودنا ، يجب علينا أن نبدأ المرحلة الثانية أي دور التنفيذ ، وحيث إن حاشيتي من الوزراء متعصبون لمذهب السنة ومن المحتمل أن يدبروا الدسائس لعرقلة الموضوع ، ويتهموني بالتشيع فيتأخر تنفيذ الأمر نتيجة لذلك ، أرى أن من الصحة تحويل هذا الغرض المهم من الباب العالى إلى الصدارة العظمى وأن تجعل شيخ الإسلام في السر متحدا ومتفقا معك في هذا الشأن .



الشيخ أحمد روحي الكرماني — ميرزا آقا خان الكرماني — ميرزا حسن خان خبير الملك

ثلاثة من قادة الفكر في إيران التجأوا إلى تركيا في عهد السلطان عبد الحميد ، وكانوا من أخـ
أصدقاء جمال الدين ، وقد استدعوا إلى تبريز بحيلة وقتلوا هناك بتدبير من الحكومة الإيرانية

فقبل السيد ، ثم إنه بعد أن أودعت الإجراءات الخاصة بالاتحاد الإسلامي إلى شيخ الإسلام ، والصدر الأعظم – حسب ما ارتآه عبدالحميد – أسدل الستار نهائيا على موضوع الاتحاد الإسلامي بسبب الخلافات التي نشأت في الرأي بين السيد والسلطان عبدالحميد ، وفي خلال هذه الأحوال وقعت نسخة من الخطابات التي كانت بإمضاء السيد وأصحابه ، بشأن الدعوة إلى الاتحاد الإسلامي والتي كانت موجهة إلى أحد العلماء الأجلاء في العتبات المقدسة ، في يد محمود خان قنصل إيران في بغداد ، فأرسل ميرزا محمود خان تلك الرسالة مشفوعة بمبالغات كبيرة وتأويلات منمقة إلى الشاه ناصر الدين بطهران يقول فيها : إن السيد جمال الدين قد اتفق مع بعض الإيرانيين على تسليم المملكة الإيرانية إلى السلطان العثماني ، وأخفى غرضه خلف ستار الوحدة الإسلامية ، وقد ضم أغلب العلماء إلى صفه . وفضلا عن ذلك ، فإن رسائل الشيخ أحمد روحي ، والميرزا آقا خان الكرماني التي كانت ترسل من الآستانة إلى أمين الدولة ومعاون الدولة وغيرهما بشأن الدعوة إلى الحرية والتي أطلع ناصر الدين شاه علىُ أغلبها قد أيدت ادعاءات قنصل بغداد .

وبعدما فرغ ناصر الدين شاه من قراءة هذا التقرير ، اعترته رهبة بالغة فأبرق من فوره إلى الميرزا محمود خان علاء الملك سفيره في الآستانة يقول : إن كل الأشخاص الذين يشاركون السيد جمال الدين في موضوع الاتحاد الإسلامي ، وهم من رعايا إيران يجب أن توجهوا لهم تهما سياسية ، وأن ترسلوهم مخفورين إلى إيران ، ونظرا للكراهية والحقد اللذين كان يحملهما علاء الملك للحاج الميرزا حسن خان خبير الملك القنصل العام للسفارة الإيرانية في الآستانة ، إلى جانب عدم اكتراث ميرزا آقا خان والشيخ أحمد روحي بشأنه ، اعتمادا على السيد جمال الدين لكونهما – من خواص أتباعه – لهذا كله كان علاء الملك ، يتحين الفرص للإيقاع بهم .

وبعد وصول برقية الشاه ناصر الدين رأى أن الوقت مناسب للانتقام ، فأحكم المؤامرة مع محمود باشا مدير الشرطة في الآستانة ، ومناه بوعود كاذبة قائلا : إني سأطلب لك أعظم وسام في الدولة الإيرانية ، كما سأسلم لكم رعايا تركيا الذين فروا إلى إيران ، أو من يفرون بعد ذلك بشرط أن تسلموا هؤلاء

الثلاثة من الإيرانيين ، لأنهم من المنكرين لأساس الملكية ، ومن الملتفين حول السيد جمال الدين ، والمحتمين بالسلطان عبد الحميد لثقته العمياء بالسيد ، وأرجو أن ترسلوهم إلى السفارة الإيرانية .

فوافق محمود باشا دون روية على هذا الكلام المغرض ، ورفع تقريرا مفصلا في هذا الشأن إلى السلطان عبدالحميد ، فسر السلطان عبدالحميد سرورا بالغا من تسليم الفارين إلى الدولة التركية ، وأصدر أمرا يفيد بأن اختيار الرعايا الإيرانيين موكل إلى سفيرهم ، وذلك دون علمه بصلة الأشخاص المذكورين بالسيد جمال الدين .

وفي هذه الأثناء اصطدمت آراء السيد الثاقبة بالأهواء الشخصية لرجال الدولة وأفراد الحاشية ، كما ثارت ثائرة البغض والحسد في نفس شيخ الإسلام ، بتأثير وشايات أبي الهدى نديم السلطان ، كما قلل السيد من زيارة السلطان ، وكان خديوي مصر قد حضر إلى الآستانة إذ ذاك ، وكان متشوقا لزيارة السيد جمال الدين للغاية ، وكان كلما استأذن من الباب العالي في مقابلة السيد لا يجيبه إلى طلبه .

فتجرأ خديو مصر يوما وأسرع إلى مقابلة السيد في منطقة (كاغذخانه) أحد متنزهات الآستانة بعيدا عن الأنظار ، وحظي بلقائه مرة أخرى ، فأنهى الشرطة والجواسيس إلى عبدالحميد أمر تلك المقابلات ، فتوجس عبدالحميد خيفة من ذلك ، وخشي أن يتم اتفاق بين السيد والخديوي – نظرا للظروف في تلك الأيام في الآستانة ، ووجود حزب تركيا الفتاة وخاف أن يتقرر خلعه وتنصيب الخديو بدلا منه ، كما أن السيد عبدالله والي المدينة المنورة – الذي كانت له منزلة خطيرة ، وكان معرضا لكراهية رشاد بك ولي العهد العثماني – كان قد لجأ إلى منزل جمال الدين ، وكانوا كلما سعوا إلى تسلمه يواجهون رفض السيد ومبالغته في المحافظة عليه ، إلى أن سلمه إلى خديو مصر حينما عزم على الرحيل إلى القاهرة فاصطحبه معه . وفي غضون هذه الأحوال انتهز أعضاء حزب تركيا الفتاة الفرصة للمطالبة بالحكم النيابي .

ودعت هذه المسألة – نظرا لنفوذ السيد البالغ – إلى تخصيص ما يزيد على ثلاثة عشر ألفا من رجال الشرطة السريين لمراقبة الشخصيات البارزة من الأجانب والمواطنين . وشددوا في المراقبة بحيث لم يستطع أي إنسان الاتصال بأشخاص معينين .

ووكلوا إلى عشرة من الجواسيس تتبع حركات السيد جمال الدين ، بصورة خاصة ، وراقبوا أصدقاءه ورفقاءه وأتباعه مراقبة شديدة ، فصارت هذه الأوضاع ، وأنانية حاشية الباب العالي ، ووجود النفعيين باعثا على أن ينقلب الصفاء إلى جفاء بين السيد وعبدالحميد .

فأفاد علاء الملك سفير إيران من الوضع الراهن ، وسعى إلى القبض على أولئك الأبرياء وإيفادهم إلى ساحة الاستشهاد ، وأدى توتر الصلات بين السيد والسلطان إلى التمكين لعلاء الملك سفير إيران فعمل على القبض على الشيخ أحمد والميرزا آقا خان الكرماني وخبير الملك ، حتى حصل بمساعدة الحاشية في الآستانة على أمر من الدولة التركية بتسليم الثلاثة المذكورين آنفا حسب ما يرتئيه سفير إيران ، فحملوهم إلى الحدود تحت الحراسة وسلموهم إلى موظفي الدولة الإيرانية .



جمال الدين في مصر

وتقول المصادر الوثيقة إنه في صباح ١٢ من شهر رجب من سنة ١٣١٣ هـ ، دخل ضابط برتبة (رائد) مع نفر من الشرطة إلى منزل الشيخ روحي والميرزا آقا خان ، وساقوهما قسرا إلى دائرة الشرطة بعدما صادروا كل ما عندهما من رسائل وأوراق ، كما قبضوا على خبير الملك بعد ذلك مباشرة فاتصل الشيخ محمود أفضل الملك الأخ الأصغر للشيخ روحي من فوره بعلاء الملك السفير للإفراج عنهم فلم يحصل على نتيجة .

وأبعد الشيخ أحمد روحي الذي كان من أجلة علماء كرمان مع الميرزا آقاخان الكرماني وخبير الملك وجماعة من أحرار تركيا من الآستانة في سفينة حسين باشا التي كانت من السفن الخاصة بالدولة .

ثم بعثوا الأتراك إلى أماكن مختلفة وأودعوا هؤلاء الإيرانيين الثلاثة سجن (طرابزون) .

فتوجه أخو روحي - بعد يأسه من السفير - مع أولاد الجواهري الأصفهاني إلى منزل السيد جمال الدين مباشرة ورجوه أن يذهب بشخصه إلى عبد الحميد ويطلب منه إطلاق سراحهم .

فأجاب السيد : رغم تطور العلاقات بيني وبين عبدالحميد الآن وكراهيتي لمقابلته فإني قد قابلته فور سماعي هذا الخبر وقلت له : إن هؤلاء الأشخاص لم يرتكبوا إثما سوى مشاركتهم إياي في آرائي بشأن الاتحاد الإسلامي .

فأبدى عبدالحميد أسفه للقبض عليهم وأقسم قائلا : إن نفيهم من الآستانة لم يكن بعلمي . وكل ما هنالك أن مدير البوليس ناظم باشا أرسل إليّ تقريرا يقول فيه : إن شخصين أو ثلاثة من الإيرانيين أخذوا يعيثون فسادا في الآستانة وقد اشتكى منهم سفير إيران ، فمن المستحسن أن تصدر الإدارة السنية أمرا بالقبض عليهم فأصدرت الأمر باعتقالهم دون التثبت من القضية ، وسأبرق الآن إلى (طرابزون) ليعيدوهم مكرمين .

وفي التو ، كتب السلطان بخط يده ، برقية وسلمها إلى الحاج علي رئيس الخدم الخاص ليرسلها ، فاطمأن قلب الشيخ أفضل الملك بكلام السيد جمال الدين

وتيقن من عودتهم إلى الآستانة في أقرب وقت ، وفي هذه الأثناء علم سفير إيران بما دار بين السيد وعبدالحميد للإفراج عن هؤلاء ، فأسرع إلى مقابلة السلطان ورجاه قائلا : لو عاد هؤلاء بهذه السرعة فإن هذا سيكون باعثا للحط من كرامتي أمام الرعايا الإيرانيين فأرجو أن تؤخروا عودتهم .

وكان الحاج سيد عبد المهدي ، وناظم باشا مدير الشرطة اللذان – كانا من أصدقاء السفير – يعملان معه دائما على تأخير عودة هؤلاء ، فظلوا يسعون حتى أصدر عبدالحميد أمرا ناسخا للبرقية الأولى .

وعلى كل فقد طال الأمد على اعتقال الشيخ روحي والميرزا آقاخان وخبير الملك في سجن طرابزون .

وسعى بعض الأشخاص وبعض السفراء الأوروبيين الذين كانوا قد تتلمذوا على الشيخ روحي سعيا حثيثا للإفراج عنهم ولكن دون جدوى .

وجدد أخو روحي توسله إلى السيد فأجاب السيد بعد قليل من التفكير بكل هدوء ورزانة قائلا : لو فرضنا أنهم ساقوا ابني لقتله وكانت نجاته بكلمة واحدة مني لفضلت قتله على ذل التوسل إلى عبدالحميد .

دعهم يذهبوا بهم إلى إيران ويقتلوهم حتى يحصل لأسرتهم الفخر والشرف .

وأخيرا جرى الأمر كما قال السيد ونقلوا من طرابزون ، وسلموا عند الحدود إلى جند غلاظ شداد من موظفي إيران .

وساقوهم – من هناك – رأسا إلى تبريز فسجنوا في دار محمد علي ميرزا ولي العهد في شبشكلان ، ورفعوهم إلى درجة الشهادة بعد أنواع من القسوة الوحشية والتعذيب الأليم تقشعر من سماعها قلوب القساة من الناس .

وألف ميرزا آقا خان الكرماني كتابا في تاريخ إيران أيام سجن شهداء إيران الثلاثة الأحرار ، يعرف بنامه باستان .

وقد أخطر ميرزا رضا الكرماني – الذي كان من المفتونين بحب جمال الدين – ناصر الدين شاه وحاشيته أنه سوف يقتل الشاه بسبب إبعادهم السيد

جمال الدين بهذه الصورة المزرية باحترامه ، وكان ذلك بعد إبعاد السيد من طهران وإيران ، وكرر إخطاره هذا بالقلم واللسان .

وكان بعض المحبين للسيد وممن قد خبروا نوايا ميرزا رضا قد أبلغوا - إتماما للحجة - ناصر الدين شاه نفسه والميرزا علي أصغر خان الصدر الأعظم وعددا من علماء طهران بذلك قائلين : « إن ميرزا رضا له هذه النية فإن أقدم على أمر خطير كهذا فلا ذنب على السيد ، ولا على أصدقائه ، فإما أن تسجنوه ، وإما أن تنفوه » ولذلك سجنوا ميرزا رضا مرارا بسبب أقواله وضيقوا عليه في سجون الدولة حتى أدى به الحال إلى أن يبقر بطنه بالمقص في (دار كامران ميرزا) لطول ما لبث في السجون وما لقي من تعذيب ، وعلم الشاه بما حدث فأرسل جراحا لمعالجته ، هذا فضلا عن أنهم حرقوا كل جسده في سجن قزوين .

وضربه آقا بالا خان سردار يوما بالعصى على قدمه إلى درجة أن بتر اصبعين منها فذاق واحتمل كل هذه العقوبات والتعذيبات من آقا بالاخان وسائر الحاشية حتى آل الأمر - كما قال - إلى أن كل من كان يريد أن يصير حاكما أو قائداً كان يربطه ويضربه بالعصا .

ولم تقلل كل هذه المشاق من عشقه للسيد بل كان حبه له يزداد يوما بعد يوم كما يزداد نقده لمبغضيه . وفي النهاية نجا من الحبس الذي أصابه نتيجة لتهوره وعدم مبالاته في الكلام .

واعتزم السفر إلى الآستانة لينهل من نمير فيض فيلسوف الشرق العظيم أستاذ المؤرخين وفخر المسلمين حضرة السيد جمال الدين طاب رمسه الشريف في حين أنه لم يكن في يده شيء من حطام الدنيا إلا التوكل على الله ، وكانت له في (رشت) معرفة بأحد التجار الذي كان يعرفه حين كان هذا التاجر يعمل لدي الحاج محمد حسن أمين الضرب ، فاستدان من هذا التاجر عشرين تومانا[1] ، لنفقات السفر على أن يرسل إليه بدلها عطرا حينما يصل إلى الآستانة .

وكان الحاج أمين الضرب قد أرسل إلى ميرزا علي خان أمين الدولة المدير

---

(١) كانت تساوي أربعة جنيهات فى ذلك الوقت .

العام للبريد في إيران – الذي كان من مريدي السيد – أربعين تومانا ليحولها إلى رئيس البريد في (رشت) ليعطيها إلي ميرزا رضا ، فاستلم ميرزا رضا ذلك المبلغ ولم يقبل نقود التاجر ، وردها إليه واتجه رأسا إلى الآستانة كعبته المقصودة ، ووفد إلى منزل السيد الذي كان حينذاك فى الآستانة ، وكان ضيفا على عبد الحميد ، وطلب مقابلته فأبلغ الخدم السيد بأن إيرانيا مريضا مسكينا بهذا الاسم يطلب التشرف بمقابلته .

وفي أثناء المدة التي مكثها السيد في الآستانة كان يلتف حوله أكثر الوقت الخواص من أصحابه وأصدقائه الحميمين ، بينهم بعض العلماء وقادة التحرير من الهنود والمصريين والجزائريين ، ونخبة مختارة من الإيرانيين من أمثال ميرزا آقاخان الكرماني والشيخ أحمد روحي وميرزا حبيب الأصفهاني وطاهر مدير جريدة (اختر) وميرزا حسنخان خبير الملك القنصيل العام بالسفارة الإيرانية .

فأجاب السيد الخادم : كان هذا الشخص (ميرزا رضا) مضيفا لي حينما كنت في طهران بمنزل أمين الضرب فقد عينه صاحب المنزل ليكون مضيفا لي ، وأعرفه جيدا ولكني مع الأسف قد اطلعت على سفالة طبع الإيرانيين وسخافة فكرهم فلا رغبة لي في مقابلته . فربما يكون هذا الشخص مثل بعض الإيرانيين الذين يريدون مقابلتي في حماسة وحرارة ثم يتبين أنهم من جواسيس الباب العالي أو السفارة الإيرانية .

ولكن بعض الحاضرين ممن كانوا مطلعين على سوابق أخلاق ميرزا رضا قالوا : إن هذا الرجل يمكن الثقة بأخلاقه وأفعاله دون شك ، فضلا عن أنه محتاج إلى المعالجة نتيجة لما جرى عليه من التعذيب في سفن طهران وقزوين ، فأمر السيد أن يؤخذ لمعالجته في المستشفى الفرنسي دون أن يأذن له بالدخول عليه .

واستمر علاجه أربعين يوما . وأدى السيد عن كل يوم ليرة لنفقات علاجه .

وفي أثناء وجوده بالمستشفى كان أصحاب السيد يعودونه كل يوم حتى تم شفاؤه .

وفي أول مقابلة خاصة لميرزا رضا مع السيد افتتح الكلام بقوله : في

الأوقات التي كنت فيها فخورا بخدمتك في طهران كانت تجذبني كلماتك السامية وتأثيرك النفاذ وأحاديثكم المؤثرة . ولم أحتمل كل تلك المظالم والقسوة التي صبها رجالات البلاط على الناس . فصرت أفكر كثيرا في أمر اقتلاع بنيان الظلم .

وصارت انتقاداتي لحكومة إيران ورجال الحاشية باعثا على حبسي وتعذيبي كل يوم بأنواع من العذاب ثم حدث ، أن ضربني آقاخان بالعصا على قدمي حتى سقط إصبعان من أصابع القدم كما كووا كل مواضع جسمي في سجن قزوين . وضقت ذرعا بالظلم الذي أصابنى في دار (كاميران ميرزا) فبقرت بطني بالمقص .

وشرح كل ما أصابه من متاعب ومشاق على هذا المنوال في حضرة السيد ، ولم يتمالك نفسه فأجهش بالبكاء .

وكان السيد حتى تلك اللحظة ينصت إلى حديثه بهدوء ورزانة ، فلما رأى ميرزا رضا يبكي أخذه الغضب وقال له .

إن البكاء شعار العجائز من النساء . مادام باب الموت مفتوحا أمام المرء فينبغى ألا يرضخ للظلم والهوان .

وكانت هذه العبارة السامية . أشد وقعا من الصاعقة السماوية على ميرزا رضا ، فأثرت فيه أيما تأثير ، وعزم لتوه على أن يدفع الظلم عن نفسه فأقام مدة في الآستانة معتكفا بمنزل ميرزا آقاخان والشيخ أحمد ، وكان يحضر يوميا مجلس السيد وصحبه .

وحسب ما يقال إنه في جلسة كان يحضرها روحي وميرزا آقاخان أراد ميرزا رضا أن يتفاءل بالقرآن الكريم تقوية لعزيمته الحديدية فرفع المصحف إليه ، وفتحه فجاءت الآية الشريفة التي كانت بمثابة الإعجاز في هذا الباب في أول الصفحة فتلاها الميرزا وهي ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾[1] .

فسر ميرزا رضا سرورا بالغا من حسن هذا الفأل .

---

(١) سورة القصص آية : ١٥ .

وفي بعض الأوقات حينما كان روحي وميرزا آقاخان يبقيان وحدهما في المنزل ويتحدثان في أوضاع إيران المؤسفة كان ميرزا رضا يقول لهما في عزم وتصميم : يجب اجتثاث الشجرة الكبيرة من جذورها حتى تجف هذه الفروع والأوراق وما يتبعها بطبيعة الحال .

وبعد سفر ميرزا رضا من إيران أبلغت وزارة الخارجية سفير إيران وقناصلها في تركيا ألا يزودوه بجواز سفر للعودة إلى إيران إذا أراد العودة إليها .

ولهذا السبب تأخرت عودته مدة من الزمن حتى بعث الشيخ أحمد روحي أخاه الأصغر الشيخ أبا القاسم إلى إيران وانضم إليه ميرزا رضا بصفته خادما له .

ويجب ألا يفوتنا ذكر هذه النقطة وهي أن جميع نفقات ميزرا رضا طول مدة اقامته في الآستانة وسفره منها إلى إيران كان يتحملها السيد نفسه .

وصحب الميرزا الشيخ أبا القاسم حتى أرض القوقاز ، ومن هناك عزم الشيخ أبوالقاسم على التوجه إلى خراسان وكرمان عن طريق (عشق آباد) وأوصل ميرزا رضا نفسه بطرق صعبة ذللها له الله إلى (مشهد سر) .

وعلى حسب ما سمعناه أنه اشترى في (مشهد سر) - من فاكهى - مسدسا قديما وخمس رصاصات بثلاثة تومانات ، وانطلق رأسا إلى طهران ، ومكث مدة في حضرة عبدالعظيم بالري في زاوية بالدور العلوي ، ولم يختلط بأحد خلافا لسابق عادته .

وكان يترقب الفرصة حتى حل اليوم السابع عشر المبارك من شهر ذي القعدة الحرام من عام ١٣١٣ هـ ، وكانوا قد زينوا مدينة طهران ابتهاجا بمرور خمسين عاما على حكم ناصر الدين شاه الجائر .

وبادر المتملقون من كل طبقة إلى المساهمة في الحفل ، ولكن القضاء والقدر لم يمهل ، حيث إن المشيئة الإلهية كانت قد قضت بهذا الأمر و « إذا جاء القدر عمي البصر » فقام ميرزا رضا بعمله وتم قتل الشاه على يده ، وتشرف ناصر الدين شاه عصر اليوم السابع عشر من شهر ذي القعدة عام ١٣١٣ هـ ، بزيارة حضرة عبدالعظيم وإذا بمسدس ميرزا رضا المسكين يدوي ويضرب الشاه ويقتله في بقعة

حضرة عبدالعظيم ـــة التي أخرجوا منها السيد قبل ذلك وبعد القبض عليه أقر بصراحة بالغة دو خوف أو وجل .

وأما ما يقولونه من أن هذه الواقعة قد تمت بإذن من السيد فأنا أكذبه لأن كل ما اتصل بعلمي أن السيد لم يكن يرغب في هذا العمل ، كما أن وقوع هذه الحادثة قضت على أكثر خطط السيد ، والسر الذي دعا ميرزا رضا إلى ارتكاب ذلك الأمر هو أنه لم يطق أن يرى إبعاد السيد بتلك الإهانة والقسوة مع فرط عشقه وحبه له . فلذلك أبدى عشقه الحقيقي للعيان ، وأما يقال عن دس السم للسيد فهو صحيح لا شك فيه .

وبعد جلوس مظفر الدين شاه على عرش الملك تبين أن السيد جمال الدين إيراني أسد آبادي ، فاستفسر عن حاله ميرزا علي أصغر خان – الصدر الأعظم تنفيذا للأمر – من « خان بابا خان صاحب اختيار » الذي كان في ذلك الوقت حاكما على أسد آباد ، ومن علماء البلدة وسادتها فكتب الحاكم وسراة البلدة معلوماتهم عن السيد مع توقيعاتهم وأرسلوها وكان ما قد جرى مصداقا لقوله تعالى : « لعنة الله على الظالمين » .

وبعد قتل ناصر الدين شاه حبسوا عمي ميرزا شريفخان بجريرة كونه ابن أخت السيد ، في سجن الدولة بطهران .

وكان والدي ميرزا لطف الله كاتبا عند « أمير أفخم زين العابدين خان » الذي كان حاكما على كرمانشاه في ذلك الوقت .

وأبرقوا إلى أمير أفخم لجلبه إلى العاصمة ، فأبدى أمير أفخم شهامة ورجولة ، ولم يسلمه لهم فتوارى والدي مدة عن الأنظار في جبال (لرستان) و (بشت كوه) حتى نهبوا دارنا في أسد آباد بأمر من حاكمها خان بابا خان ، فضاعت أكثر كتابات السيد .

صفات الله

وأخيرا تمسكت الحكومة الإيرانية بهذه الوثيقة ، وأرسلت إلى سفيرها علاء الملك في الآستانة ليثبت أن السيد جمال الدين إيراني ويطلب تسليمه رسميا من الدولة التركية .

ورغم أن السيد كان تحت المراقبة لتخوف عبدالحميد من نفوذ كلمته وتوتر الصلات بينهما . إلا أن السلطان عبدالحميد تظاهر بعدم رغبته في تسليم السيد خوفا من لوم الناس .

ولبث السيد في هذه المرة أربعة أعوام في الآستانة حتى أوفدت الحكومة الإيرانية ناصر الملك لقتل ذلك السيد السعيد والحكيم الوحيد أو إحضاره إلى إيران .

فلما رفضت الدولة العثمانية تسليم السيد اتفق سفير إيران ومندوبها فوق العادة الذي كان قد أوفد من إيران لهذه الغاية في سنة ١٣١٤ هـ على أن يسموا ذلك السيد المظلوم الغريب الوحيد – مثل أجداده العظام – وقد حدث ذلك ، واستشهد جمال الدين .

وتحقق هذا الشعر العربي الذي كان يتلوه السيد قبل ذلك وقد كتبه بخطه وزين به عنوان إحدى مقالاته فكان شاهدا ودليلا على ما وقع . أجل (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) .

وهذا هو الشعر .

أنا المسموم ما عندي بترياق ولا واق
أدر كأسا وناولها ألا يا أيها الساقي

وقد تبين أنه فاز بمرتبة الشهادة في شهر شوال من تلك السنة ، وأودعوا جثمانه بالتجلة والتكريم في مقبرة « شيخلر مزار لقى » بالقرب من منزله .

(بيت شعر فارسي في الأصل ترجمته) .

كل من بقي حيا بحسن السمعة فهو حي خالد . لأن اسمه يبقى حيا ، بالذكر الطيب الذي يتركه من بعده .

ميرزا لطف الله الأسد أبادي[1]
ابن أخت السيد

---

(١) وهذا نص البيت الفارسی :

زنده جاويد ماند هركه نكونام زيست

كز عقبش ذكر خير زنده كند نام را

خاتمة

اقتبس المرحوم ميرزا لطف الله جزءا من عبارات هذه الخاتمة من جريدة كاوه[1] .

المعلم الأول للحرية ، فيلسوف الإسلام الأعظم ، الخبير بسياسات الدنيا ، العالم بمقتضيات العصر ، المحرر الأول لآسيا ، الموقظ لشعور الحرية في المسلمين ، رائد الأحرار ، حامي حمى الإسلام وناصر الدين المبين ، الحريص على خير المسلمين .

ذلك هو السيد جمال الدين الأسد آبادي عطر الله مرقده . فهو العبقري العظيم الغني عن الألقاب ، والمؤيد من عند الله ، وكان من غير شك أحد العباقرة والمتصفين بعالي الصفات وخوارق العادات .

وقد وصل إلى المراتب السامية بصفاء ذهنه ، وحدة ذكائه ومواهبه الخارقة ، وسرعان ما تبحر في العلوم الإسلامية وهو لا يزال شابا .

وأودع أكثر العلوم في صدره ، وعرف لغات كثيرة ، وكانت له اليد الطولى في علم التاريخ والفلك بوجه خاص . وصار في عصره منبع نهضة خطيرة في الممالك الإسلامية ، فاشتغل بالسياسة ، وخدمة الإسلام في لندن وباريس وروسيا وسائر الممالك الأوروبية ، وعمل في الهند ومصر والآستانة وبلاد الأفغان ، وتحمل عناء كبيرا من أجل نهضة الإسلام والمسلمين وحضارتهم .

---

(١) كاوه كانت جريدة يصدرها الأستاذ العلامة تقي زاده – رئيس مجلس الشيوخ الإيراني حينذاك – في برلين ، وكانت باللغة الفارسية ولها أهمية كبيرة لمحتوياتها العلمية والاجتماعية العميقة .

وكانت له شخصية قوية ونفس مطمئنة ، وروح عالية ، وتأثير بالغ ، ونفوذ قوي ، وكانت لعينيه قوة ساحرة .

وأكبر صفاته الممتازة قدرته الخطابية التي كانت تضارع نفسه الجياشة بالعواطف ، الملتهبة بالإيمان .

وكانت نظرته تنفذ إلى أعماق قلب مخاطبه إبان محادثاته ومفاوضاته ، كما كان دائما يفحم محدثه بقوة بيانه وبلاغته .

وكانت كتابته بالعربية بدرجة من الكمال لا يمكن تصورها . فمقالاته كانت تعيد إلى الأذهان خطب صدر الإسلام . كما أن مقالاته الفارسية كانت لطيفة وتسترعي الاهتمام .

وكانت أعظم أمانيه وأهدافه أن تتحقق الوحدة الإسلامية ، ونهضة الإسلام عن طريق الأخذ بالحضارة الإسلامية ، وتجديد عظمة الإسلام وتحرره من سلطان الأوروبيين وكان يقول الحق صريحا أينما وجد دون مواربة أو تردد .

وكان يبدي حماسا وتعلقا بالغين بالإسلام . وعلى حد قول أغلب علماء أوروبا فإن هذا العالم الرباني والفيلسوف الخطير كانت ترتعد – من قوة بيانه وقدرة بنانه – فرائص الملوك على عروشها دون أن يكون له مال أو جيش .

كما أنه استطاع بفضل إحاطته بالأوضاع والأحوال الاجتماعية والسياسية أن يقضي على الخطط الخطيرة التي كانت قد رسمتها الدول الأوربية إذ ذاك .

واستعمل قوى غريبة لم يلتفت إلى أهميتها والافادة منها سياسيو الغرب والشرق ، كما كان هو العامل الوحيد في تأسيس النهضة الإسلامية والحزب الوطني في مصر .

وكان يعمل على إرشاد المسلمين وهدايتهم إلى طريق السعادة بالعلم الصحيح ، والعمل الصالح أينما حل ونزل ، وذلك بفضل جاذبيته وسمو أخلاقه . ونثر بذور الحرية والمعرفة في قلوب الأحرار . كما أنه غرس – بوجه خاص – أشجار الحرية في مصر والبلاد العثمانية وإيران والهند وأفغانستان .

وكان لفرط تعلقه بالعالم الإسلامي يخدم المسلمين ويؤدي لهم كل ما هم في حاجة إليه من نصح وتضحية ، دون النظر إلى جنسياتهم أو لغاتهم أو مذاهبهم .

وحقا إن تلك الشخصية المباركة كانت هي المرسية لقواعد الحرية ، وقد ضحى آخر الأمر بنفسه في سبيل رقي الإسلام وتقدمه . ويردد المسلمون الآن في كل بقاع العالم اسم ذلك العلامة الفهامة ، وفيلسوف الإسلام الوحيد بالتقديس والتعظيم ، ويعمل الأحرار في مصر لإقامة تمثال له ويقرنون اسمه المبارك في معاهدهم ومجالسهم ونواديهم بلقب الأستاذية والتعظيم والتكريم ، لأن أعظم آثاره كانت في مصر .

وكان محمد عبده مفتي مصر الأعظم مسترشدا به ، كما كان من تلاميذه ومريديه أصحاب المهدي السوداني ، وأديب إسحاق وعرابي باشا وجمهور المثقفين في مصر ، وكان أصحابه ومريدوه يعشقونه ويعظمونه لدرجة كبيرة .

ومن آثاره الخالدة تاريخ الأفغان ورسالته باللغة الفارسية في الرد على الدهرية باسم الـ « نيجريه » و (المقالات الجمالية) و (الطفل الرضيع) و « لحجة البالغة » ورسالة في حقيقة الأشياء ، وكيفية استشهاد حضرة الإمام الحسين بن علي سيد الشهداء وثمانية عشر عددا من مجلة العروة الوثقى . ولم يهتم بأمر الدنيا ولم يتزوج وكانت حياته بسيطة جدا .

ولم يكن يملك سوى اثني عشر صندوقا كبيرا من الكتب كانت مودعة في منزل الحاج محمد حسن أمين الضرب ، فتسلمتها منه وختمتها ، كما لم يكن يملك من حطام الدنيا سوى حلتين ، وكان يكرر قوله بأني قد أسرفت في اقتناء السراويل والأقمصة (وربما كان يملك أكثر من حلتين) .

وكان يرتدي – دائما – الملابس الفاخرة ، وكان يلبس الملابس الأفغانية في بلاد الأفغان والهند ومصر وأوروبا وكان يلف حول قلنسوته قماشا أبيض دليلا على شرفه ، وكان يرتدي ملابس العلماء العثمانيين في الحجاز والآستانة .

ورغم أنه قضى شطرا كبيرا من عمره في أوروبا فإنه لم يأخذ بعادات أوروبا وتقاليدها ، وكان حلو الشمائل وقورا بدينا قوي الجسم قمحي اللون كعرب الحجاز ، وكانت عيناه الواسعتان تنبعث منهما الجاذبية والسحر ، وكان قليل الطعام يتناول وجبة واحدة في أغلب الأيام ، وكان يتناول الشاي بكثرة ، ويدخن سجاير التبغ ، وكان ملما بأغلب العلوم واللغات ، وخصوصا اللغات الفارسية والعربية والتركية والهندية والفرنسية والإنجليزية والروسية ، فقد كان يتقنها إتقانا تاما . وكان يعلم كل قوم بلغتهم .



جمال الدين بالزي الافغاني الذي كان يلبسه في أثناء اقامته في أفغانستان

والواقع أن الإنسان لا يستطيع أن ينعت هذا السيد الجليل بما يليق به من صفات ، لأن هذه الأوراق لا تستوعب فضائله كما قال الشاعر .

(بيت شعر فارسي في الأصل ترجمته) .

المدح وصف وكشف للحجاب

والشمس في غنى عن هذا الباب

ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله ، ولذلك فقد اكتفينا بهذا الموجز عن الإطناب في مدحه ، وإن كان الإطناب أفضل . وإن الحالات التي شوهدت منه أثرت عنه كثيرة ، يستلزم شرحها وتبيانها كتابا آخر والسلام .

في العشرين من شهر ذي الحجـة المحـرم من عام ١٣٣٩
كاتبه لطف الله الأسد آبادي

هذه خلاصة لشرح حال السيد جمال الدين الأسد آبادي ، وبيان حسبه ونسبه وموطنه ومولده وشرح حالاته ومراحل حياته ، وهو أستاذ الأولين والآخرين وفخر المسلمين وفيلسوف الشرق العظيم ، وقد كتبه والدي المرحوم ميرزا لطف الله خان في أسلوب بسيط دون تكلف للسجع والقافية ، وكان ممن تتلمذوا عليه ، كما كان من المريدين المفتونين به ، وقد استفاد منه في السفرتين اللتين لازمه فيهما في طهران ، وكان في خدمته طوال المدة التي قضاها فيهما ، فظفر بفوائد جمة .

وقد سمع أغلب هذه المعلومات من لسان السيد نفسه ، واستقى باقيها من المصادر الموثوق فيها .

وهأنذا أقدمها خدمة لتاريخ الإسلام وتلبية لطالبيها الكرام .

وإني أقدمها للسيد محرر مجلة إيرانشهر الغراء حتى تطبع ضمن ما تنشره هذه المجلة بإذن الله .

٢٦ من ذي القعدة من عام ١٣٤٢

صفات الله الأسد آبادي



صفات الله خان بن لطف الله خان

الملحقات[1]

١ - السيد جمال الدين في الآستانة
بقلم السيد الفاضل ميرزا حسين خان دانش الأصفهاني نزيل الآستانة

يرى بعض الفلاسفة أن الحوادث الكبرى ، هي التي تخلق الرجال العظام ، ويرى البعض الآخر عكس ذلك ، فيقولون إن العظماء هم الذين يخلقون كبرى الحادثات ، وعلى كل فقد كان السيد جمال الدين ، أحد أولئك العظماء ، وقد صادفت حياته يقظة الإيرانيين ، وانتباه المصريين وتيقظ الأتراك ، وعلى فرض اقتناعنا بمواتاة الظروف ، فليس في خلال الثلاثين سنة الأخيرة وخاصة في القطر المصري وبلاد إيران ، كانت ذات أثر عميق جدا .

وكانت للسيد جبهة عريضة ، بارزة ، وكان يحمل تحت عمامته رأسا مليئة بالتعقل مزدانة بشعر مجعد ذي حلقات طويلة تتدلى من تحت عمامته حتى أسفل صدغيه ، وكان ذا أنف متزن جميل ، كما كانت ذقنه ضخمة تدل على صلابة صاحبها ومتانة طبعه ، وكان ذا شفتين غليظتين ، ولحية كثة في نهايتها ، خفيفة في العارضين يختلط في شعرها السواد بالبياض ، تدل في غالب هيئتها على أفغانيته أكثر مما تدل على إيرانيته . وكان له صدر واسع بقامة قصيرة مستقيمة ممتلئة ، ونظرات مهيبة يشع منها الاعتداد بالنفس من عينين سوداوين واسعتين في حدقتين كبيرتين ، وفم متسع وصوت جهوري ، وكان له يدان صغيرتان تنتهي بأصابع دقيقة متناسقة ، وكان يبدو أثناء حديثه ، ثائرا مهتاجا ، في شيء من اللطف ، وكانت تتحرك ذؤابتاه أثناء النقاش والجدال كما تتحرك ذؤابة فحل الأسد . يلقي

---

(١) الأرقام ٢ ، ٣ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ من هذه الملحقات أرسلت من قبل السيد صفات الله خان .

كلمته دون محاباة ، أو وجل في صوت قوي كأنه زئير أسد في عرينه يهز القلوب ويرعبها . وكانت لنظرات هذا الرجل وكلماته جاذبية عجيبة تأسر الحاضرين لأول وهلة . وكان حريصا مدة اقامته في الآستانة على نظافة ملابسه التي كانت عبارة عن جبة جوخ أحمر وعمامة بيضاء وسروال أسود ، وكان يفرط في شرب القهوة وتدخين السجائر السوداء المعروفة باسم (بابيروس) . ولم يقرب من فمه المشروبات الكحولية قط ، كما كان ملتزما بشرائط الصحة ، فكان يقل من الطعام ، على المائدة ، وكانت رغبته في الحوامض تفوق ميله إلى الحلوى ، ومع أن مائدة طعامه كانت تصف على منضدة عالية على الطراز الأوروبي فإنه كان يأكل بأصابعه الخمس بينما يتناول أضيافه طعامهم (بالشوكة والسكين) إذ لم يكن يأبه بعادات أهل زمانه وآدابهم في هذا الباب .

ولم تكن للسيد علقة بالنساء والزواج فلم يتزوج طيلة حياته أبدا .

وقد أراد السلطان عبدالحميد الثاني أن يزوجه من أحدى أميرات السراي ، فلم يقبل السيد جمال الدين هذا العرض السلطاني ، وبادر برفضه ، وكان هذا مدة اقامته الأخيرة بالآستانة من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٨٩٧ ميلادية ، التي انتهت بوفاته .

وفي تلك الأيام كان السيد يشير إلى ذلك في أثناء حديثه ، فكان يقول أحيانا يريد السلطان أن أتزوج ، مالي والزواج ! إني ما تزوجت هذه الدنيا العظيمة الجميلة فكيف أتزوج بامرأة !.. .

وكان السيد يبدو شهما سخيا مع أضيافه والوافدين عليه ، ويعامل كلا منهم على قدر منزلته ومرتبته . فيمد الفقراء والمعوزين بالمال ، ويدعو إلى مائدته الأغنياء والنبلاء ، وكان أثناء الطعام يخاطب الحضور قائلا : « تفضلوا ، تفضلوا ، وكلوا ، فهذه مائدة سلطانية ، وتناولها ثواب » . ولكنه كان يقنع بلقيمات من الخضروات أو المخللات ، وكان أغلب حديثه على المائدة ، ينم عن عدم الاكتراث والدعابة .

وكان السيد جمال الدين إبان إقامته في الآستانة يصوم شهر رمضان كله ويحيي لياليه – حتى أوقات السحر – في المحاورات العلمية والمذاكرت الفلسفية

مع المعارف ، والأدباء والفضلاء وساسة الشرق ، في دار الضيافة السلطانية (بمحلة التشويقية بنشانطاشي في الآستانة) وكان يؤدي صلاة الجمعة دون انقطاع بمسجد الحميدية ، وكان يحدث في مثل هذه الليالي أن يخاطب أحيانا شخصا غير معين بقوله « أنت يا أيها الدرويش الفاني مم تخشى ؟ اذهب وشأنك ، ولا تخف من السلطان ولا تخش الشيطان ! » وذلك مع أن مجلسه لم يكن يخلو لحظة ، من عيون السلطان .

ومن جملة الأشخاص الذين كانوا يحضرون – دوما – مجالس السيد بالآستانة ، ميرزا عبدالحسين خان الكرماني المعروف « بآقاخان » ، والشيخ أحمد روحي الكرماني ، والحاج ميرزا حسن خان « خبير الملك » والسيد محمد طاهر التبريزي « صاحب جريدة أختر » والأمير الحر أبو الحسن ميرزا المعروف « بالشيخ الرئيس » ، ومعلم فيضي التبريزي ، وإبراهيم المويلحي المصري ، وسلاوى أفندي العربي ، وحسين رضا باشا « الوزير ورئيس لجنة الأتراك المهاجرين » الذي كان يعلن عن تشيعه في كل مكان ، والشاعر التركي محمد بك الذي لم يزل حيا وهو الآن أحد نواب المجلس الوطني بأنقره . والسيد برهان الدين البلخي ، وزمرة أخرى من السواح والشبان المصريين والإيرانيين وغيرهم ، ممن لا أذكر الآن أسماءهم .

وكان السيد جمال الدين في أطواره وأفكاره من الصلابة والحدة بحيث لم يتقبل طبعه الوقاد غير الخوض في المطالب السياسية الواقعية ، والمجادلات العلمية سواء كان ذلك شفاها أو كتابة ، ولم يعر المسائل الأدبية البحتة اهتماما كبيرا ، وكان يرى في الشاعرية حطا من مقامه وكثيرا ما كان يقول : « كنت أقرض الشعر في شبابي ولكنني تركته في الكبر » وأذكر أنه كان يستشهد أحيانا – في أثناء حديثه – دون تكلف ببيت من الشعر العربي أو الفارسي تأييدا لقوله ، ثم يشرح المعنى الفلسفي أو العلمي الذي يتضمنه ذلك البيت بأسلوبه الخاص . ومن جملة ذلك هذه الأبيات التي نظمها عراقي الشاعر وحافظ الشيرازي حيث كان يلهج بها دائما .

نخستين باده كاندرجام كردند
زجشم مست ساقى وام كردند[1]
چوخودكر دناسر خويشتن فاش
عراقى راچرا بد نام كردند

خارارچه جان بكاهد كَل عذر آن بخواهد[2]
سهل است تلخى مى در جنب ذوق مستى

وكان يقول أثناء توضيحه لمعنى البيت الأخير « سيان عندى طال العمر أو قصر ، فان هدفي أن أبلغ الغاية وحينئذ أقول فزت برب الكعبة » .

وكان المرحوم ميرزا آقاخان الكرماني لصفاء طبعه ، وسعة خياله يردد في حق « السيد » هذا البيت مفتتنا به .

عرب ديده وتركه وتاجيك وروم[1]
زهر جنس در نفس باكش علوم

وكان المرحوم آقاخان هذا يترنم مبينا حبه للسيد جمال الدين بأمثال هذا البيت ، وهو منكس طربوشه على حاجبه ، وكان يطوي أزقة الآستانة وشوارعها منجذبا بعشق السيد ، وهو يهرول راقصا مذهولا ، ويقول .

رشته بركَردنم افكنده[2] دوست
ميكشد هرجاكه خاطر خواه أوست

---

(١) هذان البيتان للشاعر عراقي ، ومعناهما : كانت أول صهباء صبت في الكأس ، مستعارة من عين ثملة لساق .

وحيث إنهم هم أنفسهم قد أفشوا سرهم ، فماذا ياترى ذنب العراقي ؟! .. .

(٢) هذا البيت لحافظ ومعناه :

« ولو أن وخز الشوك يؤذي النفس ، فإن أريج الورد يعوض أذاه ومرارة الخمر يستسيغها ذوق الثمل . » .

(١) معناه : خالط العرب والترك والتاجيك والروم ففي نفسه الطاهرة من كل جنس علوم .

(٢) ومعناه : لقد وضع الحبيب حبلا في عنقي ، وأخذ يسحبني حيثما شاء كما يهوى .

وكذلك كان المغفور له الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، الذي يعد في مقدمة مجتهدي العرب وكتابهم ، مفتونا بالسيد جمال الدين بحيث كان يقول : « أنا واحد من تلامذته . فإني لو قلت إن ما أتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ » .

وكان السيد رغم مشربه الفلسفي وميله القليل إلى المتصوفة مستمسكا بالمذهب الحنفي مع اهتمام شديد بأداء فرائض المذهب ، كما يقول الشيخ محمد عبده نفسه : « هو أشد من رأيت في المحافظة على أصول مذهبه وفروعه » .

ومن المعلوم أن الهدف السياسي للسيد جمال الدين والغرض الذي بذل همته من أجله طيلة حياته ، وعقد النية على حصوله ، وتعرض في سبيل ذلك لشتى البلايا والمحن ، إنما هو تخليص الأمم الإسلامية من الضعف والهزال ، وإرشادهم وهدايتهم إلى طريق التقدم والكمال . وكان يسعى دائما – وبشتى الوسائل – للحط من شأن الإنجليز وتقليص ظلهم عن الشعوب الإسلامية . وكان عداؤه للإنجليز يظهر في كل خطوة من خطوات حياته . إلا أنه ليس من شك في أن أمنيته النفسية في بلوغ الشهرة ، وغروره الذاتي كان لهما أثر كبير في هذه الحركات ، فإن السيد كان تواقا إلى أن يشتبك مع من هو أعظم منه شأنا ، ويكافح من هو أكثر منه قوة وسلطانا .

وقد سبق أن ذكرت عن الشيخ جمال الدين أنه كان يأسر الجميع بإعجاز بيانه ، ويختطف الأرواح بسحر نظراته النافذة ، وكان على حد تعبيره يتكلم العربية ويكتبها أفصح بكثير من لغته القومية « الفارسية » ويتكلم الفارسية بأسلوب يميل قليلا إلى الأسلوب العربي[1] .

ويشهد بقدرته البالغة على الكتابة باللغة العربية ما تنطوي عليه أعداد مجلتي « العروة الوثقى » و « ضياء الخافقين » اللتين كانتا تصدران مدة في باريس ولندن ، بيد أن إنشاء السيد في العربية ، لم يكن يبلغ في صحته ورِوائه مبلغ إنشاء الشيخ محمد عبده ، كما أنه لم يخل من شيء من العجمة ، ولكن حينما كانت تمتزج ثورة

---

(١) أي أنه كان يتلفظ مخارج الحروف بلهجة عربية .

أفكار السيد بجمال تعبير الشيخ امتزاج الشهد بالسكر ، كانت تتجلى المعجزات فى أساليب الإنشاء العربية .

ويذهب الأفغانيون والمصريون إلى أن السيد ولد في قرية « أسد آباد » من مضافات « كنر » من أعمال كابل ، ولكن الإيرانيين يقولون إن « أسد آباد » هذه هي « أسد آباد » إيران بالذات ، من مضافات « همدان » وأن السيد إيراني العنصر بينما يفخر الإيرانيون بظهور هذا الرجل من أفغانستان ، ولا يعترفون بأنه إيراني الأصل والوطن .

وكل يدعـي وصلا بليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا

اذا انبجست دموع في عيون ... تبين من بكا ممن تباكى

ويرى جماعة من كتاب الغرب ومستشرقيهم أن السيد إيراني الأصل وأنه إذا كان قد اشتهر في العالم بأنه أفغاني ، فإنما كان ذلك لعدم ثقته في حماية إيران لرعاياها في الخارج ، كما أنه لم يكن يعتمد اعتمادا قويا على تلك الدولة في صيانة حقوقه ، ورعاية شئونه .

وأتذكر انني ذهبت صباح يوم لمنزل السيد جمال الدين في نشانطاشي بقصد الزيارة واستأذنت في الدخول عليه ، وما إن قربت منه حتى وجدته محدقا بنظره إلى الأرض يذرع البهو من أقصاه إلى أقصاه ، يروح ويغدو غاضبا رافعا صوته كالمجانين وهو يقول « لا نجاة إلا في القتل ، لا خلاص إلا في القتل ، لا سلامة إلا في القتل ... » وكان السيد آنذاك غارقا في تهوره ، غير مبال بحياته وكان منكسا رأسه وهو يضرب الأرض بقدمه ولم يلتفت إلى حضوري لديه فاشتد عجبي لهذه الحالة الجنونية التي وجدته عليها إذ رأيته منشغلا بنفسه إلى هذا الحد . فلم أتقدم إليه بشيء ، وعدت من حيث أتيت ، وتركته وشأنه ، وبعد أنقضاء خمسة وعشرين يوما أو شهر على ذلك وردت أخبار من طهران باغتيال « ناصر الدين شاه » بمسدس « ميرزا رضا » الكرماني .

ولم يكن السيد جمال الدين يستطيع كبت جماح رغباته ، ولم يكن له شيء من الزهد في الدنيا أو الرضا بالقليل ، أو رياضة النفس ، أو غير ذلك من خصائص الدراويش وأهل التصوف « وقد سمعته مرات يقول : إن في الدنيا نوعين

من الفلسفة ، أحدهما أن ليس في الدنيا شيئ قط نملكه ، فيجب أن نقنع منها بخرقة ولقمة . وثانيهما ، أن كل ما في العالم جميل مرغوب ، إنما هو لنا وينبغي أن يكون لنا . والثاني هو المثل الأعلى فيجب أن نتخذه شعارا لنا ، ولا نلتفت إلى الأول الذى لا يساوى قطميرا ، أو شروِ نقير ، فمن الواضح جداً ، أن مثل هذه الشخصية ، لا يستطيع صاحبها أن يكون زاهدا أو درويشا أو مرشدا أو مريدا .

ولهذا أقول إن السيد لم يكن شيئا سوى رجل ثوري القصد ، ناري الطبع على بصيرة وعلم ، وكان داعية للهياج ، فلسفي المشرب غليظ القلب شديد البطش ، ولم يكن مؤمنا بإمكان رقي شعب في سلم التطور والتكامل .

وبعد أن قبض عليه قهرا في موضع تحصنه ، بضريح السيد عبدالعظيم(١) بأمر من ناصر الدين شاه ، وموافقة الصدر الأعظم ميرزا علي أصغر خان أتابك ، وتقرر إبعاده من إيران إلى حدود العراق قهرا في شتاء قارس البرد كثير الثلج والمطر ، لم يستطع احتمال هذا الذل ، والهوان اللذين لحقاه فلم يغفر للشاه ووزيره بل سلك طريق أخذ الثأر منهما .

وكان يروي كيف أن جنود الشاه كانوا يسوقونه من منزل إلى منزل وهو راكب على برذون في قلب ذلك الشتاء القارس شديد البرودة ، الذي كان الثلج يصل فيه حتى أعلى الركبتين ، وكانوا بعد أن يطرقوا باب كل رباط ، على الطريق ينادون أهله : « افتحوا الباب فنحن جنود مكلفون بسوق أحد المجرمين » ثم يعقب على هذه القصة قائلا .

« أيها السادة ، لقد كنت أنا ذلك المجرم ، وعجيب من نفسي القاسية أنها لم تمت بهذه الشدة ، ونجت من تلك المهلكة » . وكانت عيناه أثناء كلامه عن ذلك الحادث تحمران وتدوران في محجريهما في حرارة وشدة وتتوهجان كسراج متقد ، ويظل مدة على تلك الحال دون أن يستطيع كظم الغيظ أو الهدوء .

---

(١) الشاه عبدالعظيم اسم قرية قرب طهران ، بها مرقد أحد أولاد أئمة الشيعة .

وكانت الدنيا في نظر السيد جمال الدين ليست إلا لوحة شطرنج ، فكان يقول دائما : « الدنيا لعب ، فمن ربحها ربح ، من خسرها خسر » .

وعندما كان الحديث يدور حول الباب والبابية ، كان السيد ينبري لتجريح عقيدتهم علنا ، ومع أنه كان يطالب بتيسير فهم الدين الإسلامي فلم يكن يرى فائدة أو مزية للبابية . فهو يقول : « ما مبلغ ما أبدى البابية من الهمة لتسهيل تكاليف الديانة المحمدية ، وأي خدمة أدوها للمسلمين ، إلا إبدالهم القرآن بالبيان وتغييرهم مكة بعكة . ومثل هذا لا يمكن عدّه في الحقيقة إصلاحا ، إذ لم يكن المسلمون بحاجة إلى دين جديد ، فالدين الإسلامي بمقتضى الزمان والمكان لم يكن بحاجة إلا إلى نوع من التبسيط والتيسير فحسب ، ولم تؤد معتقدات البابية ، إلى هذا الهدف أبدا » .

ثم يستطرد قائلا : « ينبغي أن تتمشى أحكام الإسلام وتتلاءم تعاليمه مع ظروف كل زمن وحاجاته ، خوفا عليه من الزوال . وهذا معنى ما قيل من أن الله يبعث في رأس كل قرن رجلا ليصلح أمر هذه الأمة .

وإن الشاعر السنائي مع أنه كان أقرب إلى مبدأ ظهور الإسلام منا بثمانية قرون ، ولم تكن سنن الإسلام وتعاليمه قد اختلطت بعد بالأوهام والخرافات ، قال يخاطب الرسول الكريم .

دين ترا دربى آرايشند
دربى آرايش وپيرا يشند[1]
بسكه ببستند براوبرک وساز
كرتو ببينى نشنا سيش باز

وكما ذكرت سابقا ، كان السيد جمال الدين أكثر طلاقة في التحدث والكتابة باللغة العربية منه في غيرها من اللغات . وكان يقرأ الكتب العلمية

---

(١) هذان البيتان للسنائي الغزنوي الشاعر ، الصوفي المعروف الذي توفي في القرن السادس ، ومعناهما : إنهم يعمدون إلى تزين دينك ، ويقصدون تزويقه وتجميله ، ولكثرة ما أضافوا عليه من زوائد وحواشي ، فإنك إذا رأيته لا تكاد تعرفه .

والأدبية الفرنسية ويفهمها ، ولكنه لم يكن يستطع الكلام دون خطأ بهذه اللغة ، وكانوا يقولون إنه كان ملما إلى حد ما باللغة الإنجليزية أيضا ، وقد تفهم السيد بدقة الفلسفة اليونانية عن طريق الترجمات العربية ، كما لم يكن ذا خبرة بعلوم الغرب وفنونه ، إلا قليلا ، وكان له القدح المعلي في علم الأديان والفقه الإسلامي ، والتفسير والحديث والمعاني والبيان وعلم الكلام ، وفي أصول العلوم الشرقية الإسلامية وفروعها على الإطلاق ، هذا ولم أشاهد إلى الآن مثله متكلما خطيبا بمثل هذه الفصاحة بالعربية أبدا .

وكانت مهارته أقوى ما تكون في إبداع المعاني ، وابتكار المضامين منها باختيار الألفاظ وتطريز أساليب الكلام ، وكانت له اليد الطولى في مواطن الجدل وإقامة الحجج ، ولم يستطع أحد أن يشق عبابه في هذا المضمار ، كما قال الشيخ محمد عبده رحمه الله : « إنه ما خاصم أحدا إلا خصمه ، ولا جادله عالم إلا ألزمه ، وقد اعترف له الأوربيون بذلك بعد ما أقر له الشرقيون » . وقصارى القول : إن حدة ذهن هذا الرجل وجلادة طبعه ، وحرية تفكيره ، وكثرة تجاربه ، وسعة علمه ، هي التي جعلت القريب والبعيد يفتتنون بشخصيته ، فطبقت شهرته الآفاق .

وقد تعرف السيد في سنة ١٨٨٣ م أثناء مقامه في باريس بالفيلسوف المؤرخ الإفرنسي الذائع الصيت « أرنست رنان »[١] ونشر مقالا في جريدة « دبا »[٢] يرد فيه على المحاضرة التي ألقاها الفيلسوف المذكور عن الدين الإسلامي وعلومه بجامعة السوربون ، فتقدم رنان برد مهذب على ذلك المقال نشره في الجريدة نفسها في اليوم التالي المصادف لـ ١٩ إيار[٣] ١٨٨٣ م » .

ويصف رنان في رده المذكور السيد وصفا شيقا ، لم يصدر من قبل عن شخص مثله فيقول فى حق السيد : « قلما استطاع أحد أن يؤثر في نفسي مثل ما أثر هو (السيد جمال الدين) ومحاورتي إياه هي التي دعتنى إلى أن أجعل عنوان موضوع

(١) Ernest Renan
(٢) Débats
(١) أي في ١٩ مايو ١٨٨٣ .

محاضرتي في السربون « صلة الروح العلمية بالإسلام » ، إن الشيخ جمال الدين أفغاني متحرر مما علق بالإسلام من أوهام وخرافات ، وهو من العناصر القوية القلب ، التي تسكن مرتفعات إيران المجاورة لتخوم الهند ، حيث تكمن روحه الآرية تحت نقاب ضعيف من الإسلام .

هذا ، ووجود الشيخ يعتبر أكبر دليل على تلك الحقيقة الكبرى التي كثيرا ما صرحت بها قائلا : إن قيمة الأديان منوطة بقدر ما يكون لمعتنقيها من تقدير . وإن أفكار الشيخ الحرة ، وطبعه النبيل القويم ، أثناء الحوار دفعتني إلى الاعتقاد بأني أرى أمامي أحد معارفي القدامى ، كابن سينا أو ابن رشد مثلا وقد عاد إلى الحياة مرة أخرى ، أو أشاهد أولئك الأحرار الذين كانوا قد مثلوا دور الإنسانية مدة خمسة قرون » .

ويجب أن أقرر رغم كل ذلك أن منزلة ارنست رنان العلمية كانت بدرجة لا تحتمل معها المقارنة بينه وبين منزلة السيد جمال الدين العلمية .

ذلك لأن رنان هو الذي أوجد بكتابه وآثاره انقلابا خطيرا في الدين والتفكير في عالم الغرب ، وهو أحد أعلام الفلاسفة والمؤرخين ، كما كان من أعظم كتاب فرنسا في القرن التاسع عشر .

هذا بينما يعد السيد جمال الدين في نظر التاريخ أحـــد الثوار المستنيرين ، وخطيب الشرق اللاذع ليس إلا .

أما أنا شخصيا فلم أتمكن من أن أجد أي انسجام بين بعض أقوال السيد وبين أعماله العجيبة ، أو تفسيرا لها ، أو أن أضفي على تلك الشخصية الخطيرة علما أو خلقا عظيما ، ومن ذلك أقواله في شأن المرحوم « ميرزا آقا خان الكرماني » وزميليه الآخرين بعد القبض عليهم وحبسهم في ميناء طرابرزون ، ويأسهم من الخلاص من براثن الدولة العثمانية . فكنت أسمعه يتكلم مثلا مع الاصدقاء بملئ فمه غيظا وغضبا عن ميرزا آقاخان المسكين في تلك الأيام ، ويقول في يأس :

« لا أدري لماذا قبضوا على هذا الإنسان المسكين ، ولا بأي تهمة سجنوه ،

فإنه لشخص جد عاجز ، وهو أحمق لايحل ولا يربط ، فماذا يمكن أن يصدر عن شخص مثل هذا ؟! ... » في حين أن السيد كما اعترف بذلك الجميع كان قد حرض بنفسه في تلك الأيام « ميرزا آقا خان » و « ميرزا حسن خان خبير الملك » و « الشيخ أحمد روحي » بعلم من السلطان عبدالحميد على فتح أبواب المكاتبات السياسية مع العلماء والمجتهدين بالعتبات[1] بقصد توحيد كلمة المسلمين واتحاد دولهم تحت لواء الخلافة[2] ، وبعد اعتقالهم ونفيهم من الآستانة بسعي من « ميرزا محمود خان علاء الملك » سفير إيران لدى الباب العالي باسم الدولة الإيرانية ، لم يستطع السيد بعد ذلك إعادتهم أو تخليصهم .

وكان السيد لا يزال على قيد الحياة ، حين وصل نبأ قتل أنصاره هؤلاء ، في تبريز بيد جلاد « محمد علي ميرزا » الفظ الغليظ القلب . وإني لآسف جدا الأسف لقتل « ميرزا آقاخان » الذي كان واسع العلم مرن الطبع لطيفا ظريفا وقد ضاع هباء ضحية حبه للسيد جمال الدين .

ورغم أن « ميرزا محمود خان علاء الملك » بذل أقصى جهده لدى السراي السلطانية والباب العالي بقصد القبض على السيد وسوقه إلى إيران باعتباره محرضا على قتل السلطان الشهيد « ناصر الدين شاه » إلا أن السلطان عبدالحميد لم يوافق رغم كل هذا السعي الحثيث على تسليم السيد جمال الدين بل أصر على أن يبقى في حمايته ، بيد أنه لم تمض مدة حتى أصيب السيد بمرض السرطان في فمه ، وانتهى الأمر بموته نتيجة لاستئصال ذلك السرطان على يد أحد جراحي الترك . ويقال إنه طلب أثناء مرضه إذنا من السلطان ليرحل إلى أوروبا طلبا للعلاج ، ولكنه لم ينل بغيته . ويقول البعض الآخر إنه تسمم أثناء إجراء العملية الجراحية . وقالوا أيضا ، إنه لم يكن معه في ساعته الأخيرة سوى خادمه صادق نصراني فأسلم روحه بين أحضانه ، وقد أودع الثرى في بشكطاش بمقبرة « يحيى أفندي الدراكاهي » رحمه الله عليه وغفرانه .

---

(١) المقصود بالعتبات قبور أئمة الشيعة فى إيران والعراق حيث يقيم العلماء والمجتهدون .

(٢) Panislamisme

وكان السيد كثيرا ما يقول في أثناء حديثه : لقد ولدت دويا ، وأوجدت حركة في كل مكان ذهبت إليه من الدنيا ، ذلك لأن أعمال السيد كانت كلها تتم عن طريق الخطابة والكلام ، وقليلا ما كانت يده تمتد إلى القلم والقرطاس ، وعندما تأثر بكتابات المرحوم « ميرزا آقاخان » وجد في نفسه رغبة تشجع لكتابة بعض الموضوعات باللغة الفارسية ليؤلف منها رسالة تنشر بين الناس ، وكان يقول : « إني لأعجب من أن الناس قد افتتنوا بقراءة كتاب سعدي وأمثاله إلى هذا الحد ، وأنتم تزعمون كذلك أن سعدي كان متمكنا من الكتابة ، أتظنون أن كلستان وآثار سعدي الأخرى من الأهمية بمكان ؟!... فينبغي لنا أن نكتب أشياء كثيرة حتى يعرف الناس ما هي الكتابة ومامبلغ تأثيرها ؟!.. .

وبين أنصار السيد الثلاثة ، كان « ميرزا آقاخان » وحده يعد كاتبا منشئا محيطا بجميع معارف الشرق وآدابه . أما « ميرزا حسن خان خبير الملك » فلم يكن إلا أديبا حسن الخط حاضر البديهة يسير على الأساليب القديمة ولم يكن « الشيخ أحمد روحي » سوى رجل ثوري خطير متكلم . ولم يكن أحد من هؤلاء الثلاثة مطلعا على علوم الغرب وآدابه ، عارفا بإحدي لغاته معرفة تامة ، ولكنهم كانوا مع ذلك يحرصون على أن يوجدوا ثـورة في إيران ، على غرار الثـورات التي أوجدها « فولتير » و « جان جاك روسو » و « فولنى » بقوة بيانهم ، وقدرة بنانهم – في القرن الثامن عشر الميلادي – في فرنسا والغرب .

وحينما يطلع أحد على جـودة ذكاء السيد وغزارة علمه ، وكثرة تجاربه وطول رحلاته ، ومساعيه لتوحيد الدول الإسلامية ، يتوق نفسا إلى معرفة مصيره كفيلسوف حقيقي كبير ، أو كعالم خبير لم يزرع طوال حياته إلا بذور الخير في مزرعة الحياة ، ويتمنى أن يكون مصيره واضحا نقيا كصفاء السماء في مساء يوم من أيام الصيف الجميلة ، بيد أنه للأسف لم يكن كذلك ، فإن هذه الأعجوبة – الذي كان يعد بحق إحدى التجليات الخارقة لقدرة الله تعالى – أضاء العالم كشعاع برق وسط طوفان ، ثم مضى . ولم يخلف من بعده شيئا ، اللهم إلا أن نقول إنه لولا إقدامه منذ ثلاثين سنة في إيران على مناوأة استبداد « ناصر الدين شاه » وهدم سلطانه الغاشم لكان من المحتمل ألا تستطيع الأمة الإيرانية قطع هذه

المراحل من طريق اليقظة والتجديد في خلال العشرين سنة الأخيرة ، ولما تمكنت إيران من رؤية وجه الحرية في هذه الساعة كذلك .

فقد تعجل السيد أمرا كان من المحتم وقوعه في إيران ، وقصر بذلك مسافة الطريق على الأمة الإيرانية ، أما السياسة الاتحادية للدول الإسلامية التي كان يستهدفها السيد طوال ثلاثين سنة ، فقد أصبحت اليوم أثرا بعد عين ، وليس لأية دولة شرقية أمنية في العمل من جديد بتلك السياسة ، والكل يعلم أن بقاء كل أمة وحياتها منوطان بثبات قواها الحيوية ، ودوامها في طريق الحضارة الغربية ، وفي الأخذ بأسبابها ، مع المحافظة على لغتها وآدابها وعاداتها القومية الحميدة .

ولا أنسى أبدا أن مراسل جريدة « تام »[1] في الآستانة طلب يوما مقابلة السيد بعد مقتل « ناصر الدين شاه » وسأله ما رأيكم في ما ينسبه البعض إليكم من التحريض على قتل « ناصر الدين شاه » ؟ فأجابه السيد في حدة وغضب : « إني لم أتنزل إلى هذا الحد بأن ألوث يدي بالاشتراك في أعمال شعب دني وضيع كهذا ، فتبا لهؤلاء القوم وتبا لمليكهم » ويمكن الحصول على تفاصيل هذه المقابلة في مجموعة الثلاثين سنة الأخيرة من هذه الجريدة (تام) في باريس .

وختاما أرى أنه ، إذا كان القصد ، تحليل سوانح حياة السيد جمال الدين والوقوف على حوادث أيامه ، ففي هذا المختصر ما يكفي .

(بيت شعر فارسي في الأصل ترجمته) .

— لقد قلت موجزا لهذه القصة ، فاقرأ أنت التفصيلات من هذا الموجز .

الآستانة — ٢١ يونيه ١٩٢٦ .

حسين دانش الإصفهاني

* * *

(١) Temps

٢ - خطاب السـيد

ننشر هنا صورة الرسالة التي كتبها السيد جمال الدين الأسد آبادي من (باريس) حوالي عام ١٣٠٠ من الهجرة ، ردا على رسالة الحاج السيد هادي الأسد آبادي .

(إلى السيد ابن العمة الحاج السيد هادي) .

« عزيزي السيد هادي

كانت رسالتك – حقا – كالحديقة التي رصعت عيدان أشجارها الملتفة بالأزهار المتنوعة ، وذلك لسمو معانيها ورشاقة ألفاظها . ولكن المسالك بين أشجارها كانت – للأسف الشديد – مملوءة بالقبور الخاوية ، والعظام البالية ، وجثث القتلى ، والدماء الجارية ، مما يسبب النفرة منها ، وكراهة النظر إليها . ورائحتها تمنع حاسة الشم من استنشاق عبير تلك الأنوار والأزهار . والسلام » .

وحسب ما تبين بعد ذلك ، وأكده الحاج السيد هادي نفسه أن هذه الرسالة كانت ردا من السيد جمال الدين ، على الرسالة التي كتبها الحاج السيد هادي إليه ، ينصحه فيها أن ينصرف عن أفكاره العالية ، ويترك هذه العقائد جانبا ، لأنه يخشى أن تؤدي هذه الأعمال إلى أن يضحي بنفسه في هذا السبيل .

هذا بعض ما علق بخاطري مما رواه والدي ميرزا لطف الله خان عن خاله السيد ، وسمعه منه بنفسه فإن رأيتم فيه فائدة فسجلوه .

* * *

٣ - من أقوال السيد وحالاته

سأل ميرزا لطف الله خان السيد : إني أرى كل عالم وخبير من شتى الأقوام يستفيد من علمكم ، فيفيد كل منهم بقدر استعداده . فأرجو ألا تحرموني من هذا العلم الغزير الذي أكرمكم به الله تعالى ، وأن تعلموني شيئا أفيد منه في الدنيا ، والآخرة .

فأجاب السيد قائلا : واظب على تلاوة القرآن الكريم ، واعمل بأحكامه .

فقال ميرزا لطف الله : إني أقرأ القرآن بقدر ما أستطيع ، ولكن ليست لي معرفة كافية بالصرف والنحو ، لأتفهم معاني القرآن جيدا .

فأجاب السيد : إذا عملت بما تفهم منه فسوف تنكشف لك بقية معانيه بإذن الله تعالى .

ثم قال : لا تأس ولا تحزن على فقد عزيز قضى نحبه .

(ونسيت السؤال الثاني ، وجوابه) .

وسأله بعض الأشخاص : كيف كان يعاشر غير المسلمين ، خلال تلك المدة الطويلة ، التي مكثها في بلاد الفرنجة .

فأجاب السيد : كنت أعاشرهم كما كان يعاشرهم جدي رسول الله ﷺ .

* * *

وفي أيام عيد النوروز[1] التي صادفت رحلة السيد الأولى أو الثانية ، إلى طهران أخذ الناس من جميع الطبقات – وضيعهم ، وشريفهم ، خواصهم ، وعوامهم – يتوافدان على منزل الحاج محمد حسن أمين الضرب ، لزيارة السيد ومقابلته ، حيث كان قد نزل في هذا المنزل ، وتصادف أن عددا من اليهود ذهبوا لزيارته ، وكان اليوم ممطرا ، فمنعهم خادم الحاج أمين الضرب .

وما أن علم السيد بأمرهم حتى أمر بعدم منعهم ، وأحضرهم لديه .

وبعد أن دخلوا عليه ، وتبادل معهم المجاملات المعتادة خاطبهم قائلا : أريد أن أعاملكم اليوم بالرسم المتبع في بلدتي (أسد آباد) .

فأخذ مناديلهم ، وملأها بالحلوى ، ثم أعطاها لهم .

وبعد تناول الشاي والحلوى ، قال لهم : أيكمْ أكثر اطلاعا ، وتبصرا في آيات التوراة ؟ .

فأشاروا إلى أحدهم ، فتكلم معه بشأن وجوب تشرفهم بالإسلام ، عملا بحكم التوراة .

فأجابه أحد اليهود قائلا : لو كان الإسلام هذا الذي أنتم عليه فوا حسراتاه على أنا لم نتشرف – إلى الآن – بالانتساب إلى الدين الشريف ولو كان الإسلام ذلك الذي عليه الآخرون ، فالأولى بنا أن نظل يهودا .

* * *

---

(١) النوروز : هو اليوم الأول من الشهر الأول لفصل الربيع ومعناه : اليوم الجديد وللإيرانيين عادة متبعة منذ آلاف السنين ، وهي اعتبار هذا اليوم عيدا عاما ، لجميع طبقات الشعب .

ويحتفل به الملك والصعلوك على السواء ، ولا يزال الإيرانيون – حكومة وشعبا – يحتفلون بهذا العيد إلى يومنا هذا ، ويعدونه « عيد الطبيعة » لأن الطبيعة تجدد حياتها كل عام في الربيع .

كما أنه أشار – فى خلال حديثه – إلى والدي ، عند رحلته الأخيرة إلى طهران سنة ١٣٠٧ من الهجرة ، وقال : أم فلان كانت في غاية القسوة ، ذلك لأنه في أيام الطفولة كانوا قد أعدوا لي حجلة[١] .

وكان الدهليز الذي في دار أبي بميدان (أسد آباد) فيه ارتفاع قليل .

وحيث إنني كنت طفلا ، ولا أقدر أن أسير بتلك الآلة ، مع ذلك العلو ، فقد نهرتني أم هذا (ميرزا لطف الله والدي .) نهرة ، لا يزال دويها في إذني .

* * *

لقد سمعت مرارا من والدي ، ومن الحاج السيد هادي الأسد آبادي – من أقارب السيد – أن السيد كان كثيرا ما يترنم بهذه الأبيات التالية ، في الأوقات المناسبة ، وذلك بنغمة مؤثرة جداً :

أذكر من مائة كلمة من كلمات مرشدي كلمة واحدة هي : لا ينهدم العالم مادامت الحانة عامرة[٢] .
أزصد سخن ببرم يكحرف مرا ياداست ويران نشود عالم تاميكده آباداست .

ومن ذا الذي يستطيع أن يجلب القلب، أو يستطيع أن يعطي الروح .
يا دل كه تواند برد جان كه تواند داد.

إن جلب القلوب وإعطاء الأرواح منحة إلهية .
دلبردن وجاندادن اين هردو خدا داداست .

أين تباع الخمر التي تؤثر في نفس الصوفي ؟ لأني في ألم من ذلك الزهد الريائي[١] .
مى صوفى أفكن كجا ميفر وشند كه در تابم ازدست زهد ريائى در ميخا نه به .

لقد أغلق باب الحانة ، فبالله لا تقبل
بستند خدارا مبسند كه در حيله

(١) قوائم خشبية تصنع للأطفال الصغار ، ليتدربوا على المشي بواسطتها .

(٢) ليس المقصود هنا بالحانة دكان الخمر ، بل المراد معنى صوفي هو الحب الإلهي .

(١) المراد البحث عن الحقيقة هربا من أهل النفاق والرياء .

أن يفتحوا باب الحيلة والتزوير والرياء

وتزوير وريا بكشايند .

أنا أعرف ذلك المعشوق الفاتن وأعرف المعشوق الذي هو ينبوع الدلال لقد سمعت ليلة أمس وقع أقدام وإني لأعرف ذلك الواقع .

من آنشوخ طنازرا من شناسم من آن مايه نازرا من شناسم بكوش من آمد دى آواز بانى من آن صاحب آواز رامى شناسم .

هذه الأشعار أيضا وجدتها بخط أبي في تحريراته ، ولم أعرف ناظمها ، فهل نظمها ميرزا رضا نفسه ، أم أبي ، أم شخص آخر ؟!... .

وعلى كل فإني أسجلها الآن :

أنا محب لآل الرسول وعبد للثمانية والأربعة[1] .

محب آل رسولم غلام هشت وچهارم .

وأنا الفدائي لإيران ، الذي اصطاد الشاه (أي قتله) .

فدائى همه إيران رضاى شاه شكارم .

قتل رضا بحكم القضاء ناصر الدين[2] وكان هذا جزاء عمله وإني لست آثما فكيف يستطيع شخص واحد مهاجمة قلب جيش لو لم تمده جنود الغيب في عمله ، فعلامة الرجولة والشهامة قتل العدو وقد عملت هذا حتى أحقق مراد الصديق .

رضا بحكم قضا كشت ناصر الدين را كيفر عملش بود من كناه ندارم تنى چكَونه زند خويش را بقلب سياهى اكرچه لشكر غيبى مدد نبود بكارم نشان مردى وآزادكَيست كشتن دشمن من اين معامله كردم كه كام دوست برآرم .

* * *

---

(١) الثمانية والأربعة : إشارة إلى الأئمة الأثني عشر ، وهم أئمة الشيعة الإمامية الإثنى عشرية .

(٢) (رضا) الذي ورد ذكره فى الأبيات هو ميرزا رضا الكرماني الذي يقال إنه أقدم على اغتيال الدين شاه القاجاري سنة ١٣١٣ هجرية ، بتحريض من السيد جمال الدين .

رسالة جناب الميرزا السيد حسين خان عدالت

يعد جناب السيد حسين خان عدالت ، أحد الرعيل الأول من الأحرار الإيرانيين وقد أدى خدمات جليلة لمعارف آذربيجان[1] ، وهو اليوم مقيم في طهران .

قدم السيد جمال الدين سنة ١٣٠٤ هجرية إلى بطرسبرغ (لينينجراد) وكان غالبية الإيرانيين يزورونه ، لما له من الشهرة .

وتعرفت به أثناء زيارتي له ، وسرعان ما تحولت تلك المعرفة إلى صداقة قوية .

ولعل السبب المهم الذي جعله يرغب في صداقتي هو أن السيد كان شديد الميل إلى ألا يتدخل الآخرون في سلوكه ، ومقاصده .

وأما أنا فقد كنت أسير حسب رغبته .

وفضلا عن ذلك فإنه لم يكن يعرف اللغة الروسية وكان في حاجة إلى من يترجم له ، فكنت أقضي كل أوقات فراغي في حضرته .

وبلغ انسجامه معي إلى درجة أنه كان يشرح لي كل أفكاره ، وعقائده وأهدافه .

وإن كل ما سأذكره فيما يأتي صورة صادقة لما قاله لي السيد نفسه .

هذا وقد دون البروفسور « براون » جزءا من تاريخ حياته ، والحق أن

---

(١) آذربيجان : أقليم واسع يقع في شمال غربي إيران ، بين القوقاز وتركيا حاضرته مدينة « تبريز » .

أكثره يطابق الواقع ، وغير قابل الشك ، وهذا ماعدا القسم الخاص بسفره إلى إيران وروسيا .

ولذلك فأنا أبادر بشرح القسم المذكور .

يجب أن نعلم أولا أن السيد المذكور لم يكن يملك شيئا من المال .

وكان قيامه بالأعمال المهمة خلال السفر ، لا يشغله عن تهيئة ما يلزمه من النقود .

وكان كل غرضه في بادئ الأمر هو إنقاذ الهند من براثن الإنجليز .

وقد أصدر لهذا الغرض جريدة « العروة الوثقى » في باريس . وبلغت قوة تأثير أفكاره في الهند إلى درجة أن الإنجليز اضطروا لوضع قوانين صارمة ، منعا لانتشار تلك الجريدة .

فكان وجود نسخة منها عند أحد يؤدي إلى تغريمه مائة جنية ، وحبسه سنتين .

وبعد أن تعطلت « العروة الوثقى » اعتزم السيد جمال الدين السفر إلى بطرسبرغ .

ونظرا لإلحاح اعتماد السلطنة ، رغب ناصر الدين شاه في مقابلته . واتفق أن تقابل السيد المذكور مع « ظل السلطان » في إصفهان أثناء توجهه إلى بلاط إيران ، وأقام في إصفهان شهرا ونصف شهر .

ومع أنه لم يذكر لي شيئا مما دار من حديث بينه وبين « ظل السلطان » فإنه يستفاد من مجموع ما حكى لي ، وما تتبعته من بعض المعلومات الخاصة بإقامته في إصفهان ، أن السيد (المرحوم) شرح أهدافه التي كانت تلائم أفكار « ظل السلطان » المذكور .

وقد تلاقت أفكارهما في قسم منها ، بحيث تعهد « ظل السلطان » بنفقات سفره إلى « بطرسبرغ » منذ ذلك التاريخ .

وبعد أن قابل « ناصر الدين شاه » في طهران ، سأله ناصر الدين في أثناء تلك المقابلة : ماذا تطلب مني ؟ .

فقال السيد : أريد أذنين صاغيتين .

فاستغرب الشاه من جرأته .

ثم إن الإنجليز الذين كانوا له بالمرصاد ، قد رعوا بكل وسيلة حتى استطاعوا أن يقلبوا أفكار الشاه في السيد ، فتحدثوا إلى الشاه عن عصيان عرابي باشا ، وخروج المهدي السوداني ، وخلع خديوي مصر ، وتكلموا في ذلك مما أدى إلى حرج موقف السيد في إيران ، بسبب تغير عقيدة الشاه فيه ، وأخيرا اعتزم السفر إلى بطرسبرغ .

(تكلم السيد في موضوع عرابي باشا وموضوعين آخرين ، كلاما مستفيضا لا يتسع المجال لذكره الآن) .

وقد بدأت صداقة السيد مع « كاتكوف » – الذي كان من الصحفيين الروس البارزين ، والصديق الحميم لامبراطور روسيا – إبان إقامته في باريس .

وكانت دعوة « كاتكوف » هذا ، من الأسباب القوية لسفر السيد إلى روسيا .

ولكن المنية عاجلت « كاتكوف » حينما وصل السيد إلى بلاد الروس ، فاضطر إلى العمل وحده في المشروع الذي كان ينوي القيام به هنالك .

هذا وقد أصبح للسيد – في أثناء العاملين اللذين قضاهما حبيسا في الهند – أصدقاء كثيرون كانوا السبب في نجاته .

وكانت أساس خطته الأصلية إعداد العدة لتوحيد البلاد الإسلامية وتخليصها من ربقة الاستعمار البريطاني .

وهذا هو السبب فى عداء الإنجليز الدائم له ، حتى إنهم لم يغفلوا لحظة واحدة عن مراقبة أعماله في بطرسبرغ .

فكان السيد في هذه الظروف يعمل على تهيئة الوسائل لإثارة الحرب بين الروس والإنجليز ، حتى تتهيأ الفرصة له للقيام بمهمته .

ولكن الروس كانوا غير راغبين في خوض معركة أخرى ، لأنهم قد انتهوا وشيكا من حربهم مع العثمانيين فكانت حالتهم المالية في اضطراب شديد .

وقد تقابل السيد جمال الدين عدة مرات مع « زنويف مدير وزارة الخارجية الروسية » ، ولكن المدير المذكور لم يبد أية مساعدة للأخذ بآرائه .

وهذا نص عبارة السيد جمال الدين عند مقابلته لزنويف : « كل ما أرميه إلى الهواء ، يقع كالقطة فوق الأرض ، أي على يديه ورجليه »[1] .

ثم إنه أراد أن يقابل القيصر بصورة رسمية ، لأن هذا كان حسب مايرى ، دليلا على التدخل في شئون الهند .

ولكن القيصر لم يوافقه على ذلك ، ورأى أن تكون المقابلة بصورة سرية .

ولذلك لم تتسن له إلا مقابلة الملكة ، لأن مقابلة القيصر السرية كانت بلا جدوى . فيئس جمال الدين من تنفيذ خطته في روسيا .

وفي أثناء هذه الأحوال اختلت شئون الأمير « ظل السلطان » ولم يستطع – نتيجة لذلك – أن يمد السيد بالمال ، فأخذ نشاط السيد في الفتور تدريجيا .

وسافر ناصر الدين في هذه الأثناء إلى روسيا ليذهب منها إلى باريس ، بغية حضور الاحتفالات بقيام الجمهورية بفرنسا .

وكان يقوم بأعمال السفارة الإيرانية في بطرسبرغ في أثناء وصول ناصر الدين شاه إليها « علاء الدين التبريزي » ، وكان أرفع الدولة مستشارا للسفارة ومفخم الدولة سكرتيرا لها .

---

(١) نص عبارته بالفارسية هو .

« هرجه أورا بهوا مياندازم مثل كَربه روى دست وبا بزمين ميا فتد » .

ولم تكن لهؤلاء السادة أية صلة بالسيد المرحوم ، فلم يميلوا إلى مقابلة مع الشاه .

ولم يكن المرحوم ميرزا « علي أصغر خان » الذي كان في أثناء هذه الرحلة ، يحتل منصب الصدر الأعظم – رغم صلته بالسيد في أثناء اقامته بطهران – يميل إلى مقابلته في هذه الرحلة في بطرسبرغ وقد قابله ثلاثة من كبار رجال الحاشية بواسطتي فكنت حاضرا أثناء مقابلتهم إياه .

وجاء المغفور له « اعتماد السلطنة » لمقابلة السيد بواسطتي مستقلا المركبة الملكية ، وقبل يد السيد المرحوم مقدما المعاذير من أجل المقال الذي كان قد نشره في جريدة « الاطلاع » بطهران بعد سفر السيد منها .

ونظرا لاطمئنانه إلي ، وإلى حفظي للأسرار ، خاض في حديث السياسة الإيرانية ، وأبدى يأسه البالغ من ناصر الدين شاه ، وكان محقا فعلا فيما يقول .

ولم يكن إسناد الصدارة العظمى لميرزا علي أصغر خان ، مع وجود اعتماد السلطنة ، وحاجي أمين الدولة ، وحاجي مخبر الدولة ، أمرا في صالح الدولة ، بقدر ما كان في صالحه هو .

ذلك لأن سياسة ميرزا علي أصغر خان ، لم تكن بحيث ترضي الله والناس ، بل كانت سياسة تهدف إلى إرضاء الشاه ناصر الدين عنه .

كما أن الميرزا علي أصغر خان نفسه ، أقر بذلك في اليوم الذي كان يصطحب فيه السيد في العربة ، لزيارة الشاه عبدالعظيم .

وقد أفهمه السيد وخامة الأوضاع ، وعواقب سوء السياسة الروسية والإنجليزية .

فاعترف – وهو يبكي – قائلا : إن السبب الذي قربني إلى الشاه هو أني لم أبد رأيا مخالفا لرغبته ، وأن الشاه إنما يرغب أن يكون مرتاح الخاطر ، مادام حيا . وسواء عنده أقامت لإيران قائمة من بعده ، أم لم تقم وهذا هو السبب الذي جعلنا مقصرين في نظر الناس . وكان اعتماد السلطنة يقول : « إن كل كتاب

أترجمه لتنبيه الشاه ، ثم أقرأه عليه ، يحدث تأثيرا سيئا بدلا من أن يؤدي إلى خير » .

إن سياسة الشاه الشخصية تهدف إلى إفساد الخطط الروسية ما ظل على قيد الحياة ، وإبقاء الأمة في غفلة وجهل ، حتى لا يكون لأحد مجال للاعتراض على أعماله .

وكان يرى أن متاعبه كلها تأتي من وعي الأمة ويقظتها . ولم يسمح بأن يوفد أحد من رجال الدولة أولاده للدراسة في الخارج .

كما أنه مانع في أن يرسل المرحوم حاجي أمين الدولة نجله « أمين الملك » هذا – الذي كان في صحبته إذ ذاك – لتحصيل العلم في جامعات أوروبا .

وقد حدثني « أمين الملك » نفسه ، بهذه القصة ، إبان وجودنا في بطرسبرغ .

وما إن ترك المرحوم اعتماد السلطنة ، مجلس السيد المرحوم حتى تفضل سيادته قائلا : إذا كان في إيران رجل يحق أن يطلق عليه اسم المؤرخ أو العالم ، فهو هذا الشخص ليس إلا .

وفي اليوم التالي قابل السيد المرحومين : مخبر الدولة ، وأمين الدولة في المبنى الحكومي .

وكان كل منهما يحذر الآخر ، فقضيا الوقت يجيبان على أسئلة السيد في ملاطفة وتحفظ .

ولكنه كان يثق في أمين الدولة أكثر مما كان يثق في مخبر الدولة وقد أخبرني – بعد عودته – قائلا : لو أخلص كل من هذين الرجلين للآخر ، لاستطاعا إنقاذ إيران من هذه المحنة .

ومكث الشاه ثلاثة أيام في بطرسبرغ ثم قصد إلى لندن .

وكان السيد المرحوم – في هذه المرة – برما بالشاه ورجاله للغاية فاعتزم أن يضربه ضربة يوقظه بها .

ويحسن بنا أن نرجع قليلا إلى الوراء ، لنبين ما حدث في إيران قبل سفر الشاه ، مما لم يكن للروس علم بوخيم عاقبته إذ أنه قبل أن يسافر الشاه – بعام واحد – اختير (دراموند ولف) أحد الساسة الإنجليز المشهورين ، سفيرا لإنجلترا في إيران ، فأوجست روسيا في نفسها خيفة ، من تعيين (دراموند ولف) في ذلك المنصب الخطير ، واعتقدت أن انجلترا ترمي من وراء تعيينه أمرا نكرا .

ولقد ظهر بعد وصول هذا المندوب السياسي المشهور أن الحكومة الإيرانية جعلت الملاحة في نهر « قارون » حرة للحكومات المجاورة لإيران .

وكان السيد يراقب أفعال الإنجليز ، كما كانوا يتتبعون خطواته ، إذ كان قد أحاط علما – قبل أي شخص آخر – بهذه الخطة المدبرة ، في جعل الملاحة حرة في نهر « قارون » فكتب مقالا ضافيا لإحدى الصحف الألمانية ، يشرح أضرار هذه العملية ، ويثبت أن فائدة حرية الملاحة في هذا النهر تعود على الإنجليز أنفسهم كما تعود على الروس بالضرر الوبيل .

وقد ترجم هذا المقال من الجريدة الألمانية ، إلى جميع الصحف في البلاد الأخرى .

وسبب هذا الخبر دويا ، وأوجد مجالا للقيل والقال في روسيا ضد الشاه ناصر الدين .

وتحقق لدى إيران ما يعود على الشاه بالضرر لو ظل السيد فى روسيا . فدعوه إلى إيران ، وأغروه بالوعود والأماني .

هذا وقد أشرنا آنفا إلى أن السيد لم يكن لديه نقود تكفيَ لنفقاته وكان يحصل على بعض المال ، في خلال تحقيق أعماله .

لكنه عندما اعتزم السفر إلى إيران لم يكن أمامه طريق لتحصيل المال فحصل على قليل من المال من أحد الأصدقاء ، وتوجه إلى إيران .

وكنت وقتئذ في « تفليس » فقابلني هنالك وهو في طريقه إلى طهران ولم يبلغني بعد ذلك شيئ عنه ، حتى سمعت أنهم طردوه من طهران بتلك القسوة البالغة .

ولم أسمع عنه شيئا إلى أن مات .

* * *

وكان المرحوم السيد جمال الدين ذا قامة قصيرة متناسبة مع رأس كبيرة نسبيا ، ويدين صغيرتين وقدمين غير عريضين ، وكان قمحي اللون ، دموي المزاج ، وكانت حمرة الدم تبدو في وجهه إذا انحنى . وكان له ذراعان نحيلان وساقان رقيقتان للغاية . وكان متين البنيان ، ذا صدر عريض مع بروز قليل في البطن وعينين سوداوين .

وكانت له شخصية جذابة ، تفتن قلوب زائريه ، فلا يمل أحد من الاستماع إلى أحاديثه ، التي كان يتحدث بها في كل شأن .

وقد اتفق أن حضرت في صحبته عدة مرات ، وكان يتكلم معي – أثناءها – أربع ساعات في كل جلسة ، ولم أشعر بأي ملل فيها ، بل كنت أفضل الإصغاء إليه ، والجلوس معه ، على كل مجالس الأنس والتسلية .

ولم يكن للسيد المرحوم مصدر معلوم للرزق ، وكان ينفق كل ما يحصل عليه لساعته ، وكان يقول : ما كنت أعرف عدد النقود وحسابها إلى عهد قريب .

ورغم أنه لاقى من الإيرانيين متاعب كثيرة ، فقد كان يأمل فيهم خيرا كثيرا .

وكان يقول : أجل ، إنهم لا يستيقظون سريعا ، ولكنهم متى استيقظوا سارعوا إلى الأمام وتقدموا الجميع .

كما كان يقول : إن إيران مركز الإسلام ، وإن لها حق السيادة طبعا على شرط أن لا يحكمها عنصر تركي[١] وأن يكون حكمها بيد أبنائها .

---

(١) يشير إلى أن حكام إيران – أي الأسرة القاجارية – في ذلك الوقت كانوا من أصل تركي .

لكنه كان على عكس ذلك . يائسا من الأتراك يأسا شديدا . فكان قبل وقوع الحرب بين روسيا والأتراك العثمانيين ، يقول : لازلت أفكر في أن العثمانيين إذا ما ظلوا في هذه الغفلة وهذا الغرور ، فلن يستطيعوا اللحاق بركب الحضارة السائر ، وسوف يكون مصيرهم الانقراض .

واستطرد يقول : ولعل هذه الحرب تكون ضربة قوية لهم توقظهم من سباتهم العميق ، حتى يعرفوا واجبهم فيما بعد .

وكان مع هذا يعتقد من ناحية أخرى أن الدولة العثمانية لو أصابتها هزيمة في حرب ، فلن تستطيع أن تلم شعثها قبل نصف قرن .

وكان يحكي أنه في خلال نشوب المعركة حينما كانت الدولة في أشد الحاجة إلى المال ، اجتمع عدد من الأثرياء في أحد الفنادق ، وأخذوا يبكون أحوال الدولة التعسة ورغم ذلك فإنهم كانوا يطلبون – في أثناء الحديث – المشروبات الروحية . وبعد أن فرغوا من تباكيهم ، تبين أن ثمن المشروبات بلغ أربعين ليرة من الذهب .

فقلت لهؤلاء الغيورين : لو كنتم قد ساعدتم الدولة بهذه الأربعين ليرة بدلا من البكاء والنحيب ، لكان خيرا من هذه الحرقة وتلك الشفقة ، وكان كل واحد من هؤلاء السادة يملك ثروة طائلة .

وكان كل من يسأل عن دين المرحوم الشيخ السيد يجيبه « بأني مسلم » .

وحدث أن سأل أحد علماء السنة – وكان يلقي درسا – المرحوم السيد قائلا : ما عقيدتك ؟ .

فأجاب : إني مسلم . فسأله ثانية : من أي المذاهب أنت ؟ .. فأجاب السيد : « إني لم أعرف في أئمة المذاهب شخصا أعظم مني ، حتى أسلك طريقته » .

وأعاد صاحب الدرس القول مرة أخرى : لقد ادعيت كبيرا فأي المذاهب الأربعة يطابق عملك ؟ فأجاب السيد : إني أوافق بعضهم في أمر ، وأخالفهم في أمور .

وكان يحترم الرسول الكريم احتراما بالغ الوصف ، ويعتقد أن ما لحق بالإسلام من هوان وذلة ، إنما هو ناشئ من وجود الملوك المستبدين وعلماء السوء .

وكان يقول : إن هاتين الطبقتين جعلتا الدين وفق أغراض أفرادها الذين ابتعدوا عن الإسلام بمراحل كثيرة ، فبدلا من أن يوفقوا بين الدين والعقل والمنطق أخذوا يطبقون المنطق على دينهم الذي اصطنعوه لأنفسهم وأغراضهم ، ولذلك تراهم دائما في جدال .



صورة جمال الدين بالزي العربي الذي كان يلبسه عند زيارته لبلاد العرب ، وقد نشرت هذه الصورة في المجلات الروسية .

ويجب أن يعلموا أنهم مالم يلبسوا الدين لباس العلم ، فليس من حقهم أن يحضروا مجالس العلماء والمتحضرين ، وكان المرحوم السيد يريد أن يرسي الوحدة الإسلامية على قواعد القرآن ، لا على ما جاء في الأحاديث والأخبار كما كان يريد القضاء على حكم الملوك المستبدين .

وكان من رأيه أن تكون مناهج الدراسة الدينية حسبما تقتضية ظروف الزمن وأحواله ، وأن يزيل العلماء ما علق بأذهانهم من الخرافات والترهات

والأوهام وأن ينسوا العداوة والبغضاء الموجودتين بين المسلمين بالنسبة إلى معتنقي الأديان الأخرى ، وأن يكون لكل أمة حق التصرف في الأرض التي تقلها ، والاستقلال بها .

* * *

هذه خلاصة الخواطر التي بقيت في ذهني عن السيد المرحوم وعقائده وآرائه ، التي كان يحدثني بها أثناء العامين اللذين قضيتهما في صحبته .

ولقد حدثني عن حياته منذ طفولته إلى اليوم الذى قابلته فيه .

ولكن الذي سجلته كان مختصا بأحواله في تلك الفترة التي قضاها في بطرسبرغ ، مما لم يطلع عليها غيري وكثيرا ما طلبوا مني كتابة هذه الأحوال ، غير أن الظروف لم تكن مواتية للكتابة ، بيد أني لم أكد أقرأ إعلان سيادتكم حتى أقدمت على كتابتها مع ما ينتابني من ملل وسأم وأرجو أن تقع منكم موقع القبول .

طهران : حسين عدالت التبريزي

٤ - برهان الدين والسيد جمال الدين

أرسل إلينا حضرة الميرزا « حسين خان دانش » الإصفهاني نزيل الآستانة ، بناء على ملتمسنا ، الشرح الآتي :

برهان الدين البلخي هذا يعد من تقاة الدراويش ، ومن نبلاء السادة الجديرين بالتكريم .

وكان السيد برهان الدين ، يتردد على الشيخ جمال الدين - كباقي زواره - بمنزله في دار ضيافة السلطان عبدالحميد بمحلة التشويقية ، في حي (شيشلى) ، وذلك إبان اقامته في الآستانة في عام ١٨٩٠ .

وحيث إن البلخى لم يكن سوى درويش شرقي السيرة ، وشاعر رقيق التعبير ، لم يتتبع العلوم والسياسات الغربية فإن مقالات السيد جمال الدين العلمية ، أو خطبه السياسية ، أو كلماته الحماسية الثورية ، لم يكن لها من التأثير فيه والنفوذ عليه ، أكثر مما يكون للخطب الدينية التي يلقيها مرشد متصوف زاهد عارف معتكف في زاوية ، مد سماطه للغني والفقير .

ولعمري كيف يمكن المقارنة بين هذا وبين الجاذبية التي كانت للسيد جمال الدين في نفس الميرزا « عبدالحسين خان » الكرماني المعروف بآغا خان والشيخ أحمد روحي الكرماني وأخيه في الآستانة وفي قلب مصطفى كامل المصري ، صاحب جريدة (اللواء) العربية ومفكر كالشيخ محمد عبده المصري ، والشيخ علي يوسف المصري صاحب جريدة (المؤيد) العربية القديمة ، وفي قلوب جم غفير من أحرار الشبان المصريين والإيرانيين والهنود وما أفاده من إرشاداته نفر من الشيوخ والدراويش والصوفية .

(بيت شعر فارسي في الأصل ترجمته) :

وأستطيع أن أقول :

إن كلا منهم ظن أنه أصبح صديقا له إلا أنه لم يقف على أسرار قلبه[1] .

(بيت شعر فارسي في الأصل ترجمته) :

شاهد السيد هؤلاء واحدا واحدا ، وذهب ، وأعطى الروح لمن أراد منهم ، وذهب[2] .

والشيخ برهان الدين هذا هو نجل السيد سليمان البلخى ، مؤلف كتاب « ينابيع المودة » .

وهذا الكتاب يبحث في حقيقة مذهب التشيع وأحقيته ، مستدلا بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية وقد طبع في الآستانة .

وإن كنت لم أدرك زمن السيد سليمان ، ولم أعرفه ، إلا أن كتابه يدل على أنه من المحدثين الأفاضل وأنه شيعي قوي العقيدة والإيمان .

ولكن لا يظهر في نجله السيد برهان الدين ما يدل على أستاذيته ، وعلمه بالحديث .

قلنا : إن للسيد برهان الدين قريحة في الشعر صافية .

وهو ينظم الشعر التركي الجغتائي كذلك ، ويجيد خط (النستعليق) الفارسي .

---

(١) هذا معنى بيت الشعر الفارسي :
هركسى أز ظن خود شد ياد أو
وز درون أو نجست أسرار أو
وهذا البيت قد تصرف فيه الكاتب ، وأصله من نظم مولانا جلال الدين الرومي الذي يقول :
هركس أزظن خود شد يار من
وز درون من نجست أسرار من

(٢) وهذا أيضاً معنى بيت آخر هو :
« سيد » اينان رايكايك ديد ورفت
هركه راميخواست جان بخشيد ورفت
وهو للمولوى المذكور ، استشهد به الكاتب بشيء من التصرف .

كما أنه يخمس أو يسدس أحيانا ، غزلا لشعراء مثل حافظ وغيره . ويستطيع الإجادة في ذلك إلى حد ما .

وله شخصية موقرة ، فهو يظهر بمظهر الشرفاء ، فيتعمم بعمامة خضراء ، ويرتدي غالبا الثياب الفضفاضة الصفراء والحمراء والبيضاء ، كأهل خيوه وبخارى .

ولم أر هذا السيد منذ مدة ، ولعله الآن قد بلغ الخامسة والسبعين من عمره أو أكثر .

ومنذ ثلاثين سنة تقريبا ، إبان إقامة الحاج الشيخ الرئيس الأمير أبي الحسن ميرزا ، في الآستانة كانت هناك صداقة وألفة ، ومبادلات شعرية بين الأمير المغفور له ، والسيد برهان الدين هذا .

الآستانة : حسين دانش

* * *

٦ – رسالة حضرة السيد محمد توفيق

يعد السيد محمد توفيق من أدباء العصر الحديث في إيران ، وقد قضى جل حياته في البلاد العثمانية ، وكان ناظرا للمدرسة الإيرانية (دبستان إيرانيان) في الآستانة ، ومديرا لمجلة (خاور) التي كانت تصدر هناك .

وله عدة مقالات في مجلة (إيرانشهر) نذكر منها الرسالة التالية :

كتبتم في العدد الثامن من السنة الثالثة رسالة عن السيد جمال الدين وطلبتم إلى المتصلين به أن يكتبوا إليكم بما يعرفونه عنه ، فأرى لزاما علي أن ألفت أنظاركم إلى كتاب (أشهر مشاهير أدباء الشرق) لمؤلفه « محمد محسن عبدالفتاح » ، وهو الكتاب الذي طبع في مصر .

ويقع هذا الكتاب الجليل في جزءين ، وفي الجزء الثاني منه يورد المؤلف تفصيلات عن حياة السيد المرحوم ، وإثبات أفغانيته .

كما أنه يتعرض لانضمامه إلى الجمعية الماسونية ، واختياره رئيسا لها بعد ذلك ، هذا إلى جانب موضوعات أخرى كثيرة .

وقد شرح حياة الشيخ محمد عبده الملقب بالإمام ، المعدود هو وسعد زغلول (باشا) من تلامذة السيد المغفور له .

كما أورد في الكتاب نفسه أربع مقالات بقلم السيد كانت قد نشرت في مجلة « العروة الوثقى » التي كانت تصدر في باريس والتي صدر منها ثمانية عشر عددا .

كما ترجم للشيخ محمد عبده ، وكتب عنه عدة مقالات فمن المناسب مراجعة هذه التفصيلات عند كتابة رسالة عن حياة السيد .

وإن لي بالسيد المذكور قرابة ورحما ، ويضمنا جميعا النسب الحسيني الشريف .

وبعد أن وصل السيد إلى العراق قادما من طهران حل ضيفا في دار مفتي البصرة (عبد الوهاب أفندي) . وكان أحيانا يأتي للتنزه في دار أبي حيث كانت دارنا تطل على النهر ، وتمتاز بصفاء موقعها ، وبهجة حديقتها المشرفة على الشط ، والمزدانة بأزهار (العباسي) ، فكان السيد يجلس هناك ، ويتناول الشاي .

وأذكر – وقد كنت صغيرا ولكني أفهم كل شئ جيدا – إني كنت أحضر الكعك المعروف (بكلوجه) للسيد ، فكان السيد يقول لي مازحا : هل أتيت بالكليجه ؟ لأن العرب يتلفظون الكلوجه (كليجه) .

هذا وإن من تلامذة المغفور له ، كلا من عبدالله فكري (باشا) وعبدالله نديم المصريين ، وهما من فحول علماء مصر ، وكتابها المشهورين وأذكر أن السيد رغم عدم تعصبه ، وسعة أفقه ، كان يقص على والدي ويقول : في أثناء مقامي في بطرسبرغ (أي بطرو كَراد)[1] اضطرني المسلمون هنالك – لشدة تعصبهم – إلى الصيام مع أني كنت مسافرا . ولما كان النهار طويلا يمتد عشرين ساعة ، فقد خارت قواي ، حتى مرضت ، وعند ذلك تركوني ، بعد أن صرت طريح الفراش .

بمباي : السيد محمد توفيق الهمداني

---

(١) وتسمى اليوم : لينينجراد .

تكمـــلة

يقع بيت أسرة السيد جمال الدين في حي (سيدان) في (أسد آباد) إلى جانب ضريح الإمام زاده[1] أحمد ، ولايزال حتى الآن عامرا يسكنه السيد حسين ، من بني أعمام السيد .

وكان للسيد أخ واحد ، يسمى السيد مسيح الله ، الذي توفي عام ١٣٠٠ من الهجرة ، ويقع قبره بجوار ضريح الإمام زاده أحمد .

وكانت للسيد شقيقتان : إحداهما السيدة مريم ، التي توفيت حوالي عام ١٣٣٠ هجرية ، ويقع قبرها بالقرب من ضريح الإمام زاده أحمد ، وقد أنجبت عدة إناث .

والأخرى السيدة طيبة ، والدة أبي الميرزا لطف الله التي توفيت مساء الأربعاء الموافق ١٣ من صفر من سنة ١٣٠٤ من الهجرة ، ونقل جثمانها إلى العتبات[2] .

ولبى ميرزا لطف الله نداء ربه في الثاني عشر من رمضان من سنة ١٣٤٠ من الهجرة ونقل أخي ميرزا نصرالله ، جثمانه ، إلى النجف الأشرف .

أما أقارب السيد الذين لا يزالون على قيد الحياة ، فهم : الحاج السيد

---

(١) تطلق هذه الكلمة على كل من ينتمي إلى أئمة الشيعة . وكان من أبنائهم أو أحفادهم .

(١) العتبات : هن المدن التي دفن فيها أئمة الشيعة .

وهي : النجف – مدفن علي بن أبي طالب ، وكربلاء – مدفن الحسين بن علي ، والكاظمية – مدفن موسى بن جعفر ، ومحمد الجواد ، وسامراء – مدفن علي الهادي وحسن العسكرى وكلها فى العراق .

هادي روح القدس ، ابن عمة السيد ، وميرزا شريف ابن أخت السيد ، وأولاد المرحوم ميرزا لطف الله وهم :

ميرزا فتح الله الجمالي ، وميرزا نصر الجمالي ، وميرزا صفات الله الجمالي ، وميرزا سعدالله الجمالي ، وميرزا بهاء الله الجمالي ، وميرزا أبوالحسن الجمالي .

ومدون هذه الرسالة وهو صفات الله الجمالي .

والملاحظ أن هؤلاء الأخوة الستة ، اختاروا كلمة (الجمالي) علما لعائلتهم ، للدلالة على انتمائهم إلى السيد جمال الدين .

٦ – المجاهد العظيم السيد جمال الدين الأفغاني

مترجمة عن جريدة الوطن الصادرة في الآستانة بتاريخ ٣٠ من أغسطس سنة ١٩٢٤ .

رائد اليقظة الأفغانية الحديثة . وداعية الشرق الشيخ جمال الدين الأفغاني – نبذة من حياته في تركيا – صديقه القديم برهان الدين قليج خان – بعض أشعاره .

* * *

الشيخ جمال الدين من المجاهدين الذين كرسوا حياتهم لخدمة شعوب الشرق المظلومة في ميادين التجديد والديمقراطية .

وقد ولد الشيخ جمال الدين في أفغانستان سنة ١٣٥٤ هجرية ، وينسب إلى جماعة السادة المشهورين بـ « كونر » .

وكان جمال الدين من جملة العلماء والساسة الذين يهدفون إلى التوفيق بين الشريعة الإسلامية والحضارة الغربية ، فكان سياسيا وفيلسوفا في وقت واحد .

وقد قدم الآستانة للمرة الأولى في أواخر عهد السلطان عبدالعزيز حيث كان السيد تحسين أفندي مديرا لدار الفنون .

وكثيرا ما كان جمال الدين يتقابل – في خلال هذه الإقامة بواسطة السيد تحسين أفندي – مع الشيخ سليمان البلخى من مشاهير علماء الشـــرق الذي كان قد قدم من تركستان إلى هنا واختار الإقامة في حي السلطان أيوب حيث تقام هناك المجالس العلمية والسياسية .

وكان قد اختير – إبان اقامته – عضوا في مجلس المعارف الأعلى حينما كان منيف باشا وزيرا للمعارف .

فكان الشيخ المذكور يلقي دائما الخطب والأحاديث الموقظة المنيرة لأذهان إخوانه من الترك والأجانب في مجلس المعارف ، كما كان يفعل ذلك في أماكن أخرى مثل (جامع الفاتح الكبير) في مجلس حضره بعض رجال الدولة والعلماء وكبراء المسلمين . وأنشد هذين البيتين للمولوي ثم ترجمهما .

(بيتان فارسيان في الأصل ترجمتهما) :

علم الحق مندمج في علم الصوفية .

ولكن كيف يصدق الناس هذا الكلام ؟!! .

إذ أن علم الصوفية حادث وعلم الحق قديم .

فكيف يدرك هذا العقل السليم ؟!!(١) .

وكان الأستاذ يونس وهبي أفندي – الذي كان من الصدور – ممن حضروا تلك الندوة العلمية ، فنقل ما سمعه سرا إلى شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي في عبارات مغرضة مما حمل شيخ الإسلام على أن يوعز إلى السلطان عبدالعزيز بإصدار الأمر بنفي العلامة الشهير .

(ويحكى أن الأستاذ يونس قد ندم على ما ارتكبه واستغفر لذنبه) .

ولكي يهدم السيد الإدارة الاستبدادية ، ويعمل على راحة شعوب الشرق المظلومة ، أخذ يلقي في الجامع الأزهر دروسا سياسية واجتماعية وأخلاقية وفلسفية مفيدة ، واستمر في إرشاد أبناء الشرق هنالك خمسة عشر عاما . كما أنه درب

---

(١) نص البيتين بالفارسية هو :

علم حق در صوفى كم شنود — اين سخن كى باور مردم شود

علم صوفى حادث وأزحق قديم — اين جسان درفهم آيد أى سليم

زمرة من الشبان الأتراك والمصريين والهنود وغيرهم من الوطنيين الشرقيين وفي مقدمتهم : شيخ المبعوثين علي تقي بك والشيخ محمد عبده وسعد زغلول (باشا) وفتحي زغلول بك وعبدالله النديم (بك) وأدهم (بك) ويعقوب خان ونواب وغيرهم .

وكان تلاميذ الشيخ جمال الدين يسجلون كلماته النارية في مذكراتهم أثناء إلقائها . ويعمل كثير من تلاميذه اليوم على تحرير أوطانهم من نير المستبدين الغربيين .

وكان هذا الشيخ الثائر يتنقل في بلاد الشرق باذلا الجهد لتخليص إخوانه المسلمين من ربقة الظلم والاستبداد .

وقد بذل الجهد المتواصل لتنفيذ نياته المقدسة في إيران والبلاد العثمانية ومصر . وكانت غاية الشيخ تهدف إلى استئصال شأفة الجهل والاستبداد والرشوة والتعصب ، وبث روح الحرية وإقامة حكومة ديمقراطية تستطيع أن تسير في التطور والمدنية الحديثة .

ونتيجة لما لاقاه في البلاد الشرقية من عنت واضطهاد اختار الإقامة بمدينة باريس التي كانت تعد مهد الحرية في ذلك الوقت ، وأصدر ثمة جريدة سياسية وفلسفية هي « العروة الوثقى » .

وقام هناك ببعض المساجلات القلمية ، مع مفكري أوروبا وساستها وكان ينشر أفكاره عن طريق محاضراته العلمية التي كان يلقيها في مجالس باريس وموسكو ويعرف الأوروبيين بأمم الشرق وفلسفاتهم .

وكان سعد زغلول (باشا) رئيس وزراء مصر الحالي[1] – الذي يجتهد في رد ادعاءات الإنجليز ضد مصرُ والسودان – أحد محرري العروة الوثقى .

وقد خلع العمامة في باريس واجتهد في التوفيق بين العلوم الشرقية والغربية بإيعاز من أستاذه جمال الدين .

---

(١) كان سعد زغلول رئيسا لحكومة مصر في وقت كتابة المقال .

وبما أن العلامة جمال الدين كان ميالا في أول أمره إلى الأتراك فقد عاد إلى الآستانة للمرة الثانية في سنة ١٣١٠ هـ ، وأيام السلطان عبدالحميد الذي كان قد نشر على الأمة لواء الظلم والاستبداد ، وكان السلطان المذكور قد دعاه إلى الآستانة قبل ذلك ، فجاء توا إلى الآستانة ونزل في الدار التي خصصت له في حي (نشانطاشي) .

وما إن شعر بما يعانيه إخوانه الأتراك من استبداد عبدالحميد وعسفه حتى أخذ يعمل على القضاء على هذا الاستبداد .

وكان ممن يترددون عليه في تلك الدار حينئذ : برهان الدين خان من علماء بلخ ، ويوسف ضيا باشا رئيس لجنة المهاجرين ، والسيد فضل باشا ، والشيخ الرئيس الثائر الإيراني ، من أعضاء مجلس المبعوثين ، والمرحوم ميرزا آقاخان الذي استشهد من أجل جهاده في سبيل الحرية والمساواة ، وحسن خان القنصل ، والشيخ محمود ، ومحمد صديق خان ، وفيضي أفندي .

ونتيجة لتقارير متملقي البلاط وجواسيسه ، فقد وقعت تلك الدار تحت مراقبة الجواسيس السريين ، بأمر من السلطان عبدالحميد ، واستمرت مراقبتها مدة .

وفي شهر رمضان سنة ١٣١٥ هجرية توفي الشيخ المذكور ، بسبب التسمم نتيجة لعملية جراحية أجريت في ذقنه بعد أن أصيب بمرض السرطان ، إلا أنه لا توجد لدينا دلائل قطعية على أنهم تعمدوا تسميمه .

ودفن المغفور له في مقبرة الشيخ المعروف (شيخلر) بمحلة (بك اوغلى) وقد أزال عبدالحميد المستبد معالم قبر هذا المحرر الشرقي الشهير ، إلا أن مكانه معروف لمريديه ، وقد تركزت منزلته في قلوب جميع المسلمين .

ولبرهان الدين البلخي الذي كان من مؤيدي الشيخ جمال الدين — والذي يعيش الآن في تركيا — آثار في الأدب الحديث والقديم ، وأشعار باللغة العربية والجغتائية والفارسية .

ونورد من أشعاره الفارسية هذه الأبيات :

(أبيات فارسية في الأصل ترجمتها) .

أذكر حديث صديقي وأورده مرة بعد أخرى[1] .

وأنا مطلق من قيد الدنيا والدين أسير كالدراويش .

أنا حر من قيد الخرقة والسجادة والمسبحة .

وثمل من الخمرة أسير كالخمار .

أرتشف الكأس على رغم الفقير والزاهد المرائي .

لأني أسير بنشوة الكأس الدهاق .

* * *

(١) حديث يارخودرا ميكنم تكرار ميكردم

زدنيا وزدين فارغ قلندروار ميكردم

زبند خرقه وسجاده وتسبيح آزادم

زباده مست ومخمورم كه چون خمار ميكردم

كشم جامى على رغم فقير وزاهد وچاپلوس

كه من بانشئه بيمانه سرشار مي كردم

٧ – عن جناب الميرزا صادق البروجردي[١]

نبذة عن تاريخ المرحوم المبرور ، الفيلسوف الإيراني ، عظيم الشأن السيد ذي المقام الرفيع ، الأسد آبادي ، المعروف بجمال الدين الأفغاني ، طاب رمسه الشريف .

وهي بقلم السيد الميرزا صادق البروجردي .

السيد الميرزا صادق البروجودي ، الذي لخص حياة السيد في الأبيات التالية ، هو أحد علماء العصر الحديث وأحرارهم ، فقد ضحى بماله وراحته في سبيل نشر الحرية وإقرارها ، ولايزال حتى الآن يعمل على أداء واجباته ، بكل إخلاص وقد قارب السبعين من العمر .

وأمضى ثلاث سنوات كاملة في خدمة السيد ، في إيران وخارجها .

وأنتهز هذه المناسبة فأقول إنه قد تكونت بينه وبين والدي صداقة قوية ، وقد أنشأ هذه القصيدة ، وأرسلها إلي من طهران منذ مدة .

(صفات الله)

١ – ما أن ظهر جمال الدين سيد أسد آباد
حتى بادر بأقواله مرشدا أهل البلاد

٢ – فتح طريق العدل وأغلق طريق الاستبداد
فانسد طريق الظلم ، وصير الناس أحرار .

٣ – هو السيد جمال الدين شمس العلم واليقين
رائد أهل الكمال ، بدر كل العالمين .

---

(١) انتقل السيد صادق البروجردى إلى رحمة الله .

٤ – قدوة الدين المبين نسل مولانا النبي
كان كالرسول الأمين ، هاديا كل العباد .

٥ – وكان في هذا البلد الفيلسوف العالم
الذي لا نظير له في البحر أو البر .

٦ – وكان افتخار هذه الأم (إيران) بوجود هذا الابن
لا حد له ، ولا حصر بالأعداد .

٧ – تحت ضغط الظلم والجور ، صارت المملكة خرابا
ولم يكن باقيا من إيران في ذلك العصر سوى اسمها .

٨ – وحيث إنه لم يكن في ذلك العهد أمن فقد أقدم على
إقرار النظام ، وسعى لإيجاد الشورى رحمة بالناس .

٩ – وقد ظهر السيد الجليل القدر فجأة في عهد ناصر
الدين شاه بوجه مشرق كالبدر .

١٠ – وشع الضوء من هذا القمر ، واستقر في الصدور
وعلم الأبيض والأسود قول الحق وطريق النور .

١١ – وأمر حضرته أن يقتلوا جذور الزور
وقضت همته على تدمير أحراش الجور .

١٢ – وجعل لواء عدله فأس الظلم كليلة
وردت شجاعته للعباد حقوقا جليلة

١٣ – قرب الغريب فصار مألوفا
وشاد للعدل مقاما معروفا .

١٤ – صير بعدله المجانين عقلاء
ونسج بعدله للأســـتاذ قباء .

١٥ – اشتهر بالأفغاني ذلك المجاهد المبرور
رغم إيرانية ذلك الوزير المشهور .

١٦ – صار شهيدا للجور والزور ، في البلاد العثمانية
فصار قبره مليئا بالنور ، وروحه السعيدة راضية مرضية .

١٧ – كان (صادق) الحقير ، من عبيد عتبته العالية
فصار خبيرا في المعرفة ، والحقائق السامية .

١٨ – يطوف ملك كخسرو پرويز ، حول ساحاته الغرر
ليجعل البلاد عامرة ، من طبعه الناثر للدرر .

* * *

٨ – من جناب الحاج (سيد هادي) ابن عمة السيد

الأبيات التالية للسيد الحاج (سيد هادي) الملقب بروح القدس ، وهو ابن عمة السيد العظيم .

وكان من أتراب السيد ، وقد درس معه على أبيه في « أسد آباد » وهو الآن على قيد الحياة ، ويناهز المائة من عمره[١] .

وقد مكث في أثناء عودة السيد الأخيرة من أوروبا إلى طهران ، يومين في « أسد آباد » ونظم هذه الأبيات إبان وجوده فيها .

١ – لقد وفدت أيها الطائر العرشي ، ويا برعم نخلة (طور) المرام .

٢ – لقد وفدت يا حبيب الروح ويا نجي الفؤاد ، لقد وفدت أيها الملك المنقطع النظير .

٣ – لقد وفدت ياسماء العز والتمكين ، وياجمال الحق والدين المبين .

٤ – ما أسعد ملكا في عصرك ، وما أجمل قمرا في قصرك .

٥ – ما أزهى تلك البقعة التي تكون مقامك ، وما أبهى الرأس التي تكون تحت قدمك .

٦ – في مديحك أيها الملك العذب اللسان ، المنقطع النظير ويافخر الزمان .

٧ – لو حركت جواد المثنوي في مدحك ، لا نخلعت أخفاف نجائب المولوي .

٨ – ولكن عهدي في الكلام قد انقضى ، وسوق متاعي ليس فيها سوى الصمت .

---

(١) كان ذلك أثناء نشر الكتاب .

٩ – لقد بادر روح القدس بالخطاب ، فقلت ما قلت والله أعلم بالصواب .

١٠ – تتكلم أنت عن لساني ، وقد امتلأت من حبك عروق جناني .

١١ – من اتحاد نغمات مزماري ، حسدتني السماء على فخاري .

١٢ – لقد عاداك الفلك وعاداني ، وقطع حبل المقلاع بلاتوان .

١٣ – ولقد أصاب حجر الحسد الهدف بصورة سببت طردك من دارك وأهلك .

١٤ – والآن يرمي عديم المروءة ، حجر التفرقة دائما وبغير عدد .

١٥ – ولو لم أكن بقالب الجسم ، لمكنت السماء من مستقرها .

١٦ – والآمن قولي في طي المثنوي . فانظر ماذا يقول جناب المولوي .

١٧ – أنا ما بين الكلام والبكاء في حيرة ، فلا أدري أأقول أم أبكي ياترى .

١٨ – فلو قلت ما استطعت البكاء ، ولو بكيت فما الطريق إلى المدح والثناء .

١٩ – فأنت يامقصود القلب وحبيب الروح ، أيها المليك اللطيف الحديث ، العذب اللسان .

٢٠ – ما دام لي أنين في الحنجرة ، فلتتكلم بعبارة لتسكين قلبي .

٢١ – فيا لسان الحق ياجمال الدين لماذا ، صرت غريبا عن القريب لهذا الحد ؟! .

٢٢ – لماذا أغلقت باب الحديث ، معي أنا المهجور الممتلئ بما يعيد علي أنسي .

٢٣ – إما أن تجلس حتى أبثك ذات نفسي ، أو تحدثني بما يعيد على أنسي .

٢٤ – ألا إن لسانك حسام حق ، فقل ، إذ ليس في قولك ما يضير .

٢٥ – لسان الحق لا يبقى في الحلق ، كما أن حسام الحق لا يبقى في الغمد .

٢٦ – فكل ما تقوله يكون لطيفا قويا ، فإن القول عن لسان الحق عذب .

٢٧ – هو عذب ولكن في الأذن المصغية للحق ، فإن أذن الحق فضلت على بقية الآذان .

٢٨ – إذا دعوت أنت علي فأنا أدعو لك ، ولو سببتني فأنا أثني عليك .

٢٩ – بل إن دعاءك علي هو عين الدعاء لي ، وسبك لي مدح وثناء .

٣٠ – أيها الحادي لقد ثمل الجمل ، فبادر وسارع فقد فقدنا الأمل .

* * *



حاج سيد هادي روح القدس ابن عمة جمال الدين وكان على قيد الحياة في أثناء طبع الكتاب ، وكان مقيماً في أسد آباد مسقط رأس جمال الدين .

إذا أراد الله بقوم خيرا جمع كلمتهم[1]

(جاء في المقدمة أن السيد كان همه الأكبر أن يبدأ الإصلاح في إيران ويجعلها مصدر الوحدة الإسلامية قبل أي بلد آخر .

وإن المقال التالي الذي كتبه في باريس ونشره في العروة الوثقى ، والذي يدعو فيه الأفغانيين إلى الاتحاد مع الإيرانيين لدليل واضح على ما أشرنا إليه في المقدمة) .

سرنا من الجرائد الفارسية خدمة أوطانها واعتدالها في مشاربها ، وزادنا مسرة اهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ونقلها إلى اللسان العذب « الفارسي » مما نظن فيه تنبيها لأفكار المسلمين واستلفاتا لعقولهم إلى ما فيه خيرهم ، فلها منا ومن كل مخلص في محبة ملته أوفر الشكر ، خصوصا جريدة (إطلاع) التي تطبع في مدينة طهران .

وهذا المنهج القويم مما تعم به الفائدة في جميع الأقطار الإسلامية فإن جميعها بغير بلاد العرب ، وإن اختلفت ألسنة سكانها باختلاف شعوبهم إلا أنهم ينطقون باللغة الفارسية ، فهي من الشرق كاللسان الفرنساوي في الغرب ، وكان بودنا أن يعززوا أفكارنا بما تجود به قرائحهم السليمة وأذهانهم الصافية وترشدهم إليه عقولهم العالية ، خصوصا فيما يتعلق بالدعاء للوحدة الإسلامية وإحياء الرابطة الملية بين المسلمين ، لاسيما في الاتفاق بين الإيرانيين والأفغانيين لأن هاتين

---

(١) (العروة الوثقى) لا انفصام لها ، العدد الصادر في يوم الخميس ٢٢ شوال سنة ١٣٠١ – ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ ص ١٠٤ من القسم الثاني طبع بيروت مطبعة التوفيق سنة ١٣٢٨ بالمكتبة الفاروقية تحت رقم (دوريات ٧٩٦) .

الطائفتين هما فرعان لشجرة واحدة وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الأصل الفارسي القديم وقد زادها ارتباطا اجتماعهما في الديانة الحقة الإسلامية ، ولا يوجد بينهما إلا نوع من الاختلاف الجزئي لا يدعو إلى شق العصا وتمزيق نسيج الإتحاد ، وليس بسائغ عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغاير الخفيف سببا في تخالف عنيف .

وليس ببعيد على همم الإيرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الإسلامية ، وتقوية الصلات الدينية ، كما قاموا في بداية الإسلام بنشر علومه وحفظ أحكامه وكشف أسراره ، وما قصروا في خدمة الشرع الشريف بأية وسيلة . نعم البخاري ومسلم والنيسابوري والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو داود والبغوي وأبوجعفر البلخي والكليني وغيرهم ممن أنبتتهم إيران ، أبوبكر الرازي الطبيب الشهير والإمام فخر الدين الرازي ممن نشأوا في طهران وأبوحامد الغزالي حجة الإسلام وأبوإسحاق الإسفراييني والبيضاوي ، وخواجه نصير الدين الطوسي والأبهري وعضو الملة والدين وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفخر بهم بلاد فارس وهم فخار للمسلمين والفيلسوف الشهير أبوعلي سينا وشهاب الدين المقتول ومن على شاكلتهم ممن جبلوا من تراب فارس .

إن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربي وضبط أصوله وتأسيس فنونه ، منهم سيبويه وأبوعلي الفارسي والرضي ، ومنهم عبدالقاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة لبيان إعجاز القرآن وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية وصاحب صحاح الجوهري من إحدى قراهم ومحب الدين الفيروز آبادي من إحدى بلدانهم والزمخشري والسكاكي وأبوالفرج الأصبهاني وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن وشيدوا معالم الدين كلهم من أرض فارس والطبري أول المؤرخين والأصطخري والقزويني أول الجغرافيين كانوا من بلاد فارس والشبلي كان من نهاوند وأبويزيد البسطامي كان من بسطام والأستاذ الهروي وهو الأستاذ الحقيقي للشيخ محيي الدين ابن عربي كان من هراة وكلها بلاد إيران ، هل ينسى صدر الشريعة وفخر الدين اليزدي والآمدي والمرغيناني

والسرخسي والسعد التفتازاني والسيد الشريف والأبيوردي وكلهم من أبناء فارس ، من أين كان القطب الشيرازي والصدر الشيرازي ورأس الحكمة في المتأخرين مير باقر الداماد ومير فندركسي وغيرهم ؟ كانوا من بلاد فارس ! أي فضل كان ولم يكن لهم فيه اليد الطولى ، أي مزية من الله من بها على الإسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها . نعم وفيهم جاء قول من النبي ﷺ : « لو كان العلم في الثريا لناله رجال من فارس » .

فيا أيها الفارسيون تذكروا أياديكم فى العلم وانظروا إلى آثاركم في الإسلام وكونوا للوحدة الدينية دعامة كما كنتم للنشأة الإسلامية وقاية . أنتم بما سبق لكم أحق الناس بالسعي في استرجاع ما كان لكم من فتوة الإسلام أنتم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الإسلامية وما ذلك ببعيد على طيب عناصركم وقوة عزائمكم ، أظن لا يخفى عليكم أن هذا الوقت هو أحسن الأوقات لندائكم بالوحدة مع الأفغانيين والتحالف معهم على العادين لتكونوا بالاتحاد معهم حصنا حصينا وحرزا منيعا تقف دونه أقدام الطامعين . أظنكم لم تنسوا أن استيلاء الإنجليز على الممالك الهندية إنما تم بوقوع الخلاف بينكم وبين الأفغانيين ؟ هل يخفى عليكم أن كل مسلم في الهند شاخص بصره إلى طرف بنجاب ينتظر قدومكم إذا اتحدتم مع إخوانكم الأفغانيين . حصلت لكم تجارب كثيرة وشهدتم من مظاهر الحوادث ما فيه أكمل عبرة فهل يصح بعد هذا أن تستمروا على التجافي والتباعد مع علمكم أن الوحدة منبت الشوكة ؟ هذا أوان التآخي والتوافق ، هذه أوقات التحالف والتواثق . أحاط الأعداء ببلادكم شرقا وغربا وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه ، حتى تمكنه الفرصة من شن الغارة على أطراف بلادكم . فلو ضاعت الفرصة في هذا الوقت فربما لا تصادفوها في غيره . الإنكليز في ارتباك شديد في المسألة المصرية مع ضعفهم في القوة العسكرية ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعاكستها لمقاصدهم . الأمير عبدالرحمن خان أمير أفغانستان على ما نعهده من أول شبوبيته أشد الناس عداوة للإنكليز وبينهم حزازات لاتزول بل نقول إن عداوة الإنجليز سارية في عروق الأفغانيين عموما ممتزجة بدمائهم . فلو حصل الاتفاق الآن بين سلطنة الشاه وبين إمارة الأفغان لوجدت قوة إسلامية جديدة في المشرق بين سائر الطوائف الإسلامية وينبعث فيهم

ومن سائر المسلمين حياة جديدة وتتجدد لهم آمال جليلة وتنتعش بذلك أرواح المؤمنين . هذا وقت تنبهت فيه أفكار الأفغانيين إلى أعمال جيرانهم في المسألة المصرية وتحركت فيهم السواكن وهي أعظم فرصة لأهل فارس في دعوتهم للاتحاد معهم . هذا عمل من أجل الأعمال وأجزلها فائدة وإن من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالي إيران بتحرير الفصول ونشر الرسائل في بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين وإن لذلك لأثرا عظيما في النفوس خصوصا إن كانت من أقلام العلماء الأعلام والمجتهدين الكرام ، العالم الآن عالم الفكر الصالح ونشره في الكتب والرسائل والجرائد مما يؤثر أجمل الأثر في تهذيب الناس وتثقيف عقولهم وإزالة الضغائن المفسدة لمعاشهم ومعادهم فإذا قام المستبصرون وخطبوا ووعظوا وكتبوا ونشروا مع الوقوف عند الحدود الدينية والأصول الشرعية كان فضل الله كافلا لهم النجاح ، أي فرق بين الأفغانيين وإخوانهم الإيرانيين ؟ كل يؤمن بالله وبما جاء به محمد ﷺ . عبدالرحمن خان بما أكسبته التجارب أول من يتقدم لهذا الاتفاق ولا شك أن شاه إيران لما اطلع عليه في سياحاته وشاهده في أسفاره لا يأبى المبادرة إليه والسعي فيه . إن البادئ بالعمل في هذا المقصد الأسمى هو صاحب الفضل الأعظم بين المسلمين خصوصا وبين العالم عموما ، ويجني ثمرته من وقت قريب . كان الألمانيون يختلفون في الدين المسيحي على نحو ما يختلف الإيرانيون مع الأفغانيين من مذاهب الديانة الإسلامية ، فلما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثره في الوحدة السياسية ظهر الضعف في الأمة الألمانية وكثرت عليها دعايات جيرانها ولم يكن لها كلمة في سياسة أوروبا وعندما رجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالأصول الجوهرية وراعوا الواحدة الوطنية في المصالح العامة أرجع الله إليهم من القوة والشوكة ما صاروا به حكام أوروبا وبيدهم ميزان سياستها .

رجاؤنا في الأفاضل الكرام صاحب جريدة (فرهنك) الإصفهانية وصاحب جريدة (اطلاع) الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الإيرانية أن يوجهوا أفكارهم إلى هذا المطلب الرفيع ويجعلوا له محلا فسيحا من جرائدهم وينشروها من بلادهم الأفغان باللسان الفارسي وهو لسان الطائفتين وما هي إلا أيام ثم نرى علائم النجاح إن شاء الله رب العالمين .

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة

من مطبوعات دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع

اسم الكتاب	اسم المؤلف
١ - إتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء	الشيخ محمد الخضرى
٢ - أخبار أهل الرسوخ بمقدار المنسوخ من الحديث (لابن الجوزى)	تحقيق د. محمد الحفناوى
٣ - الأربعون النووية وشرحها	الإمام النووى
٤ - أصول العقيدة الإسلامية للإمام الطحاوى	عبد المنعم صالح العلى العزى
٥ - تهذيب مدارج السالكين (مجلد)	عبد المنعم صالح العلى العزى
٦ - العلم والإيمان	عبد المجيد صُبح
٧ - من فيض سورة الكوثر	عبد المجيد صُبح
٨ - الإيمان بالله (للأطفال)	د. أحمد متولى
٩ - دقائق الأخبار فى رقائق الأخيار	مجموعة من العلماء
١٠ - الحمد فى القرآن الكريم	د. محمد محمد خليفة
١١ - الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهانى	تحقيق د. أبو اليزيد العجمى
١٢ - رسالة المؤتمر السادس	الإمام الشهيد حسن البنا
١٣ - هل نحن قوم عمليون	الإمام الشهيد حسن البنا
١٤ - قضايا إسلامية « الجزء الأول »	د. محمد رجب البيومى
١٥ - الرحيق المختوم	صفى الرحمن المباركفورى
١٦ - مقدمات النبوة وإعداد الرسول	د. يحيى إسماعيل
١٧ - المؤامرة على المرأة المسلمة	د. سيد فرج
١٨ - منطلق شباب الإسلام	محمد أحمد الراشد
١٩ - التعارض والترجيح عند الأصوليين وأثرهما فى الفقه الإسلامى	د. محمد الحفناوى
٢٠ - نشيد الكتائب	مجموعة أناشيد أبو مازن
٢١ - المرشد الإسلامى فى الفقه الطبى	د. توفيق الواعى وآخرون
٢٢ - الخروج من المأزق الإسلامى الراهن	عمر التلمسانى
٢٣ - حوار مع الشيوعيين	عبد الحليم خفاجى
٢٤ - دعاة لا جباه	د. على جريشة
٢٥ - إعلان دستورى إسلامى	د. على جريشة
٢٦ - تيارات فكرية معاصرة	د. على جريشة
٢٧ - مناهج الدعوة	د. على جريشة

العنوان	المؤلف
٢٨ – أسباب ورود الحديث (للسيوطى)	تحقيق د. يحيى إسماعيل
٢٩ – منهج السنة فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم	د. يحيى إسماعيل
٣٠ – غنية المسلم من شرح صحيح مسلم	د. يحيى إسماعيل
٣١ – هذا الدين بين جهل أبنائه وكيد أعدائه	د. محمد السيد الوكيل
٣٢ – أسس الدعوة وآداب الدعاة (بالاشتراك مع دار المجتمع بجدة)	د. محمد السيد الوكيل
٣٣ – القيادة والجندية فى الإسلام (جزآن)	د. محمد السيد الوكيل
٣٤ – كبرى الحركات الإسلامية فى القرن الرابع عشر الهجرى (بالاشتراك مع دار المجتمع بجدة)	د. محمد السيد الوكيل
٣٥ – قواعد البناء فى المجتمع الإسلامى	د. محمد السيد الوكيل
٣٦ – توجيهات نبوية على طريق البعث الإسلامى	د. سيد نوح
٣٧ – منهج المعرفة من القرآن	يوسف كمال
٣٨ – قضايا إسلامية (الجزء الثانى)	د. محمد رجب البيومى
٣٩ – سيد قطب حياته وأدبه	عبد الباقى حسين
٤٠ – ابن عبد البر الأندلسى وجهوده فى التاريخ	ليث سعود جاسم
٤١ – عمل المرأة وموقف الإسلام منه	عبد الرب نواب الدين
٤٢ – الطريق إلى جماعة المسلمين	حسين بن محمد بن على جابر
٤٣ – المسجد فى الكتاب والسنة	محمد الداودى
٤٤ – التغير الاجتماعى دراسة تحليلية من منظور إسلامى	د. سيف الإسلام مطر
٤٥ – حسن البنا بأقلام تلامذته ومعاصريه	جابر رزق
٤٦ – طفلك الصغير .. هل هو مشكلة	محمد كامل عبد الصمد
٤٧ – حقيقة جمال الدين الأفغانى	د. عبد المنعم حسين
٤٨ – الإسلام فى مواجهة الاستشراق العالمى	د. عبد العظيم المطعنى
٤٩ – زاد المعلم	على لبن

سلسلة نحو أدب إسلامى عالمى

العنوان	المؤلف
١ – الفائز من يدرك دوره (مسرحية)	علاء المزيّن
٢ – همة فتاة (قصة)	د. محمد رجب البيومى
٣ – محمد عوّاد الشاعر الشهيد (تراجم وسير)	جابر رزق
٤ – فوق القمة (رواية)	عطية زهرى
٥ – الحلبة والمرآة (مجموعة قصصية)	محمد الحسناوى
٦ – فى غيابة الجب (ديوان شعر)	محمد الحسناوى
٧ – عودة الغائب (ديوان شعر)	محمد الحسناوى

سلسلة نحو عقلية إسلامية واعية

١ – جذور العلمانية	د. سيد فرج
٢ – الدولة والسياسة فى فكر حسن البنا	جابر رزق
٣ – تهافت قبل السقوط وسقوط صاحبه	عبد المجيد صُبح
٤ – العصريون معتزلة اليوم	يوسف كمال
٥ – مستقبل الحضارة	يوسف كمال
٦ – الدولة الإسلامية والحكومة الدينية	محمد على قطب
٧ – نظام الإسلام السياسى	محمد على قطب
٨ – الزواج الثانى	عبد الحليم خفاجى
٩ – قوى الشر المتحالفة (الاستشراق – التبشير – الاستعمار)	فضيلة الشيخ محمد محمد الدهان
١٠ – شبهات حول العصر العباسى الأول	د. مؤيّد فاضل ملّا رشيد
١١ – فى وجه المؤامرة على تطبيق الشريعة الإسلامية	مصطفى فرغلى الشقيرى

سلسلة أضواء على الاقتصاد الإسلامى

الإقتصاد الإسلامى بين الرأسمالية والشيوعية	محمد على قطب
الزكاة وترشيد التأمين المعاصر	يوسف كمال
الإنسان والمال فى الإسلام	د. عبد النعيم حسنين
محاسبة الزكاة	د. حسين شحاته

سلسلة أخطاء يجب أن تصحح فى التاريخ — **للدكتور جمال عبد الهادى والدكتورة وفاء محمد رفعت**

١ – منهج كتابة التاريخ الإسلامى لماذا وكيف ؟
٢ – الإسلام دين الله فى الأرض وفى السماء
٣ – إبراهيم وإسماعيل وهاجر عليهم السلام والبيت العتيق
٤ – ذرية إبراهيم عليه السلام والمسجد الأقصى
٥ – استخلاف أبى بكر الصديق رضى الله عنه
٦ – شبه الجزيرة العربية
٧ – إفريقيا التى يُراد لها أن تموت جوعاً
٨ – الطريق إلى القدس

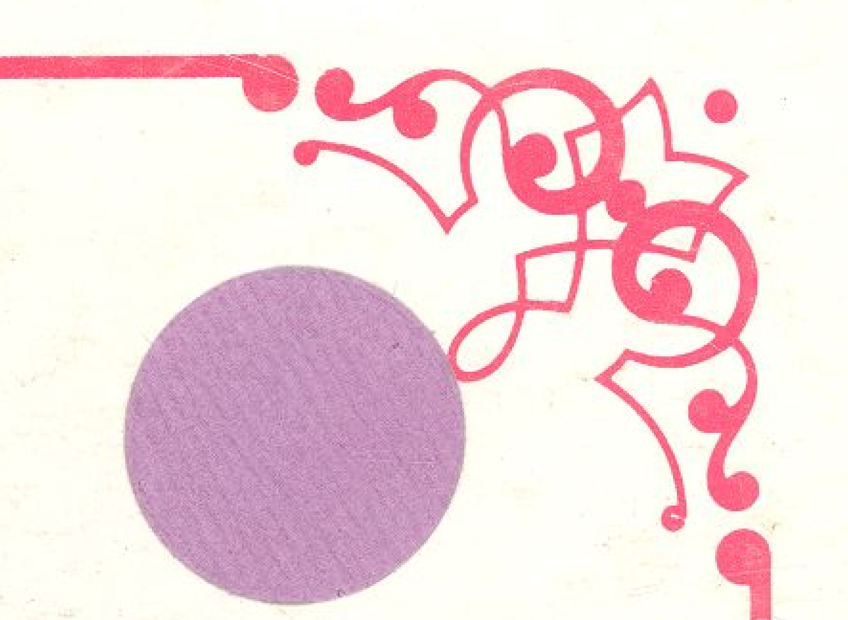
كتب تقوم دار الوفاء بتوزيعها فى مصر وهى من مطبوعات دار العدوى بالأردن :

١ – المبتلون	رغداء بكور الياقتى
٢ – الغلام المؤيد	رغداء بكور الياقتى
٣ – حفلة زفاف	رغداء بكور الياقتى
٤ – قواعد الدعوة إلى الله	همام عبد الرحيم سعيد
٥ – مفتاح كنوز فى ظلال القرآن	
٦ – قوى الإنسان بين هدى الرحمن وغواية الشيطان	محمد نعيم ياسين
٧ – وظيفة المؤمنين فى التصور الإسلامى	محمد نعيم ياسين
٨ – الخائفون من الإسلام .. لماذا ؟!	محمد نعيم ياسين

١٦٠

سلسلة ١

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٥/٧٥٠٨
الترقيم الدولى × – ٣٣ – ١٤٢٠ – ٩٧٧

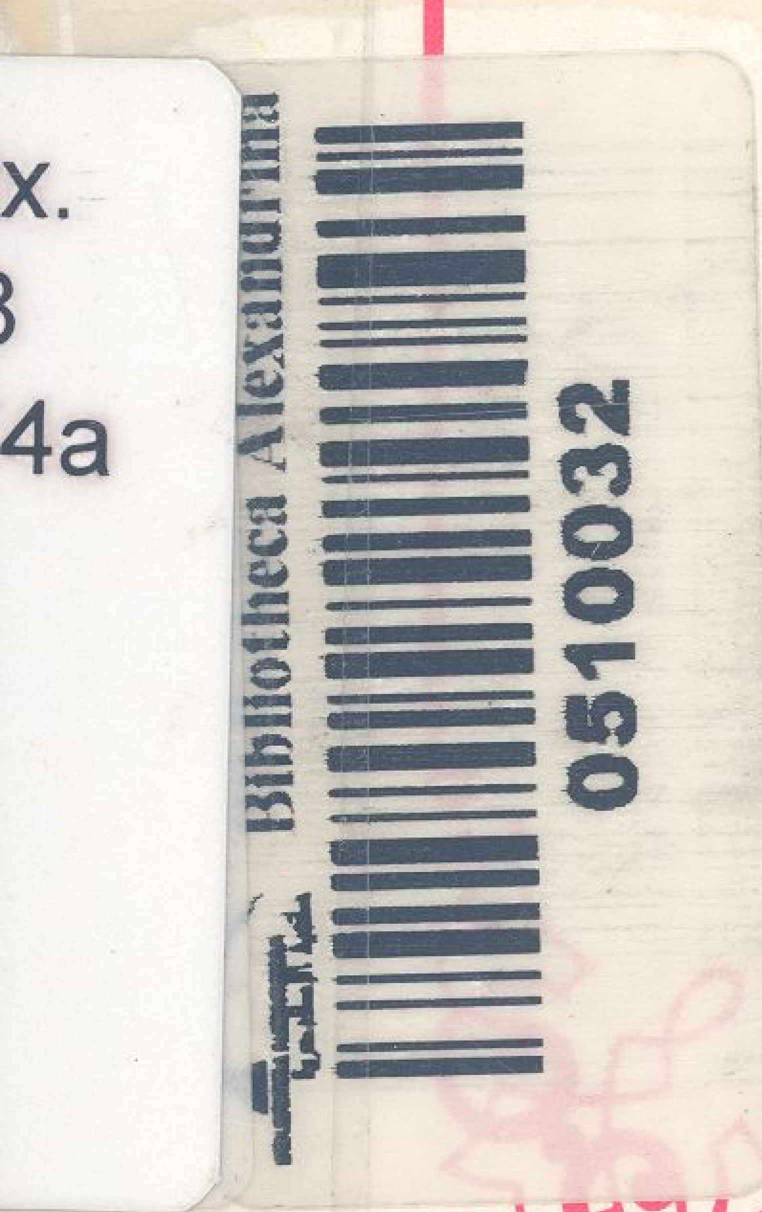
هذا الكتاب

تعد شخصية جمال الدين الأفغانى من الشخصيات البارزة التى تركت آثاراً واضحة على الساحة الإسلامية قبيل ظهور الحركة الإسلامية فى العصر الحديث ، وقد تركت شخصية الأفغانى ظلالاً متناقضة فى رأى كثير من المفكرين والمبدعين المسلمين فى العصر الحديث ، فبينما يقول البعض إن الأفغانى يعد من كبار المصلحين الإسلاميين وأن أفكاره قد مهدت لظهور الحركة الإسلامية الحديثة ، يرى البعض الآخر أن الأفغانى كان عميلاً لعديد من القوى المعادية للإسلام .

ولعل هذا الكتاب « **حقيقة جمال الدين الأفغانى** » والذى كتبه بالفارسية ابن أخته ميرزا لطف الله خان - وقام بإعداده وترجمته للعربية الأستاذ الدكتور عبد النعيم حسنين - يلقى مزيداً من الضوء ، ويكشف أبعاداً جديدة لشخصية جمال الدين الأفغاني والتي من أهمها أنه كان شيعياً إيرانياً ، ولم يكن سنياً أفغانياً .

نسأل الله أن يعم به النفع والفائدة .

وعلى الله قصد السبيل ،



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع
المنصورة - أمام كلية الطب
ت : ٣٢٧٤٢٣ - ص.ب : ٢٣٠